صفحة عشق لزعيم وطني

عشق المرحوم

مصطفى كامل باشا

دراسة تحليلية

للدكتور/ عبد المنعم إبراهيم الجميعي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

مكتبة جزيرة الورد

obeikan.com

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: صفحة عشق لزعيم وطني

اسم المؤلف: عبد المنعم إبراهيم الجميعي

رقم الإيداع: ٢٣٩٧٠/ ٢٠١٤

الطبعة الأولى ٢٠١٣

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

obeikan.com

صفحة عشق لزعيم وطني

عرض لكتاب «عشق المرحوم مصطفى كامل»

■ ■ ■ ■ ■

يبدو لمن يقرأ عنوان هذا الكتاب أن مصطفى كامل كان عاشقًا كما يظن من كلمات العنوان، وأنه لم تكن له عشيقة واحدة، بل كانت له عشيقات كثيرات، ولعل الدافع إلى هذا الظن تلك اللغة الرمزية التي استخدمها مؤلف هذا الكتاب لجذب وأسر انتباه القارئ، إن من يمعن النظر في هذا الكتاب يجد أن عشيقات مصطفى كامل لم يكن من بنات حواء؟

حقيقة لقد عشق هذا الزعيم الوطني الرومانسي عزيزة التي كانت تكبره سنا وأحبها، وطلب يدها من أهلها، وأفنى حياته في سبيلها هذا على الرغم من اعتراض بعض أهلها على اقترانها به، ونكرر أن مصطفى كامل عشق عزيزة ونحن —المصريين— كذلك نعشق عزيزة كما عشقها مصطفى كامل، حقًا فمن منا لا يعشق عزيزتنا مصر؟

وإذا كان عنوان الكتاب مثيرًا، فقد ازداد إثارة عندما لم يضع المؤلف اسمه عليه بل رمز إلى نفسه بالحرفين (أ.ف) وهذا كان مدعاة إلى الحيرة وإثارة الدهشة لدينا، هذا بالإضافة إلى أن الكاتب استعمل الرمزية في الإشارة إلى محبوبات مصطفى كامل الأخريات، وزيادة في إثارة القارئ وضع المؤلف على صفحة الغلاف مأثورة شهيرة نصها «**من عشق فعف ثم مات مات شهيدًا**» موضحًا أنها حديث شريف[1]

(١) ذكر ابن القيم في كتابه المنار المنيف في الصحيح والضعيف «تحقيق عبد الفتاح أبو غدة»، ص ١٤٠ أن هذا الحديث موضوع على الرسول ﷺ.

ولعل سر اختفاء هذا الكتاب من دور الكتب والمكتبات المصرية هو عنوانه المثير، فعلى الرغم من أن طباعته تمت في مطبعة المعارف بمصر في فبراير ١٩٠٨ أي منذ أكثر من مئة عام، وعلى الرغم من أن المؤلفات التي كتبت عن مصطفى كامل معروفة في مجملها لدى الباحثين والمؤرخين[١] فالشيء اللافت للنظر أن أحدًا من أبناء هذا الجيل لم يسمع عنه من قبل، ولم يعرف أن هناك كتابًا يحمل هذا الاسم حتى عثر عليه كاتب هذه السطور في جامعة يوتا Utah الأمريكية خلال تواجده في مهمة علمية بالولايات المتحدة في عام ١٩٨٣، ومع ذلك فإن هذا الكتاب لم يخرج إلى النور إلا بعد قيامي بعمل هذه المقدمة التحليلية له ونشره.

وفي هذا الكتاب الذي يعد من المصادر الهامة في دراسة تلك الفترة المثيرة للجدل تجلو صفحات هامة من تاريخ النضال المصري ضد الاحتلال في فترة من أصعب الفترات وأحفلها بالحوادث الكبرى التي مرت بها مصر، هذا بالإضافة إلى أنه غني بالمعلومات والأدلة التي تهدي شباب هذا الجيل إلى سيرة هذا الزعيم المصري الذي جاهد في سبيل إعادة روح الأمل بين المصريين بعد نكبة الاحتلال، وكانت وطنيته الوثابة إحدى ظواهر حياته، وفي كل حركة من حركاته، وكل خاطرة من خطرات نفسه، فكانت حياته هي الوطنية، كما كانت الشعلة التي انبثق نورها في أرجاء مصر، فأضاءت النفوس، وأحيت فيها الشعور الوطني، وحفزتها إلى الحياة الحرة الكريمة، والجهاد في سبيل الوطن.

وعلى الرغم من أن مؤلف الكتاب قد رفض الإفصاح عن اسمه مما قد يثير الريبة في نفوس من يطلع على فحواه، فإن هذا الكتاب يعد بانوراما لإنجازات مصطفى كامل ودوره المهم في الدفاع عن القضية المصرية خاصة وأنه استنطق

(١) حول هذه المؤلفات يمكن الرجوع إلى الندوة التي أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في نوفمبر ١٩٧٤ بمناسبة ذكرى مرور مائة عام على ميلاد الزعيم الوطني مصطفى كامل.

الحوادث والوقائع التاريخية بشكل تتدفق فيه العاطفة والحماسة نحو هذا الزعيم، فكان بذلك درسًا في الوطنية، وتصويرًا حيا لنضاله ومدرسة للأخلاق الفاضلة.

حقيقة إن المؤلف قد مالت به العاطفة المتدفقة في كثير من الأحيان نحو هذا الزعيم مما جعل اسم مصطفى كامل يلصق به بعض الكلمات التي لا نذكرها إلا عندما نردد أسماء الصحابة والتابعين مثل (رضي الله عنه[1] - الشهيد[2]) وهذا لا يقلل من قيمة الكتاب خاصة وأن صاحبه استهدف في مواقف كثيرة إبراز الحق، وإلى جانب ذلك فإنه يتضح في كثير من مواضع هذا الكتاب حسن التصوير، وجمال العرض التاريخي، وتبدو هذه الناحية بوضوح في الصفحات التي تكلم فيها عن نشأة مصطفى كامل، وكيف كانت حياته الأولى، فقد كتب عن مصطفى كامل منذ ولادته في ١٤ أغسطس في عام ١٨٧٤م في حارة درب الميضة بقسم الخليفة في مدينة القاهرة، وأن نشأته كانت كنشأة آلاف مثله من أبناء الأسر المصرية المتوسطة حيث استقدم والده الأساتذة من أجل تهذيبه وتلقينه مبادئ القراءة والكتابة، ثم أدخله مدرسة والده المرحوم عباس باشا الأول، فأخذ في تعلم الدروس الابتدائية، وقبل أن يتم ذلك انتقل والده إلى دار البقاء، فكفله شقيقه حسين واصف بك مفتش ري الفيوم، فقام على أمر تربيته وأدخله مدرسة القريية حيث حاز فيها السبق على أقرانه، ثم التحق بالمدرسة التجهيزية، وكان يومئذ في الحادية عشرة من عمره، حيث كان يضطرم في فؤاده حب الوطن، ونار الوطنية، وبعد أن أنهى دروسه الثانوية التحق بمدرسة الحقوق.

ويتحدث المؤلف عن حياة مصطفى كامل العملية ابتداء من دخوله مدرسة الحقوق الخديوية وانتظامه أيضًا بمدرسة الحقوق الفرنساوية الليلية، فكان في

(١) انظر على سبيل المثال صفحات ١٠، ١٣ من الكتاب.

(٢) انظر على سبيل المثال صفحات ٥، ١٥ من الكتاب.

مدرستين في عمر واحد، هذا إلى جانب دخوله في العديد من الجمعيات الأدبية والسياسية مثل جمعيات الهدى والاستقامة والتعاون والاعتدال ، وقيامه بالخطابة في هذه الجمعيات بشكل خلب العقول بفصاحته ولباقته، يضاف إلى ذلك أنه كان يكتب في الجرائد والمجلات العربية والإفرنجية كالأهرام والمؤيد وغيره وتأليفه لرواية الأندلس، وكتابه «أعجب ما كان في الرق عند الرومان» ، كل ذلك كان مضافًا إلى تحريره مجلة المدرسة التي جعل شعارها حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك، وإنشائه للواء الذي ضرب على دف الوطنية أدوارًا حماسية جميلة أصغى لها الناس، وتهافتوا على سماعها مما بعث في الصحافة المصرية روح التجديد والنشاط، ولم يكتف مصطفى كامل بإصدار اللواء اليومي ، بل أصدر بجانبه مجلة اللواء الشهرية، ثم جريدة العالم الإسلامي، وبلغت مقدرته الصحفية أوجها حتى أصدر جريدتي ليتدار إجبسيان وذي اجيشيان ستاندرد اليوميتين[1] لتعبر عن رغائب المصريين، وتفضح أعمال الاحتلال بلغة يفهمها الأوروبي، وإلى جانب ذلك فقد أسس الحزب الوطني ، ودعا الأمة إلى الانضمام إليه بقوله: «ندعوهم باسم وطنيتهم، وباسم شرفهم، وباسم حقوق وطنهم، وباسم كرامة الإنسان»[2] ونتيجة لذلك انهالت طلبات الانضمام إلى هذا الحزب من كل جانب وتم عقد أول جمعية للحزب في ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ بدار اللواء.

وبعد أن استعرض مؤلف الكتاب حياة مصطفى كامل وكفاحه من أجل مصر أخذ في التعرض لعشيقاته، فرمز إلى مصر بعزيزة بنت الأكابر وسليلة الأمجاد والتي عرف الفقر والتيتم وتعاسة الحظ طريقة إليها والتي اشتهر حب مصطفى لها منذ صغر، وذاع غرامه وهيامه بها بين أقرانه ، وكان حبه لها كالشمس التي تبعث إلى

(١) للتفاصيل : انظر: عبد الرحمن الرافعي: مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٦٢، ص ٤٤٠ وما بعدها.

(٢) الرافعي: مرجع سابق ، ص٢٦٦.

عقله نورًا فيضيء ذكاء، وإلى رأسه حرارة فيشتعل نشاطًا، وكان حبه لها سبب سعادته، وفوزه وأصل كل ثباته ومواصلته الجد والاجتهاد[1].

وعلى الرغم من هَذا الحب الكبير، وتعلق مصطفى بعزيزته مصر فقد فضل بعض أهلها الأجنبي –الذي رمز إليه الكاتب بفيكتور– عليه ورفضوا تزويجها منه بحجة أنهم ارتبطوا مع هذا الأجنبي بتزويجها له.

وقد استغل الكاتب براعته في تلمس الخيوط التي حاكها في وصفه لعزيزة ومدى هيامها بمصطفى كامل، فتعرض للبيئة المصرية وتقاليد الشعب المصري في ذلك الوقت، فأوضح أن البنت كانت كالمتاع يتصرف فيها أهلها بمشيئتهم، وليس لها أن تبدي رغبة في زوج أو ميلا إلى شاب[2]، بل كانت تقاد إلى الزوج دون أن يكون لها حق الاستشارة أو إبداء الرأي، على الرغم من أن الشرائع السماوية تعطي للفتيات حق إبداء الرأي في موضوع الخطبة والزواج[3]، ونتيجة لذلك أذعنت عزيزة لرغبة أهلها خاصة وأنهم كانوا مكبلين بالديون لهذا الأجنبي، وعلى الرغم من ذلك فإن مصطفى كامل لم يستسلم للأمر الواقع، بل دافع عن عزيزته، وجاهد من أجل إنقاذها من يد هذا المغتصب، كما استمر في إقناع أهل عزيزة برفض هذه الزيجة، وعزم على تعريض نفسه للأخطار من أجل إنقاذها من الظلم الواقع عليها بقوله لها: «أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا عزيزة، فكيف لا أحب حياتي، ثقي أنني سعيد جدًا بهذا الحب، لم أحبك باختياري يا عزيزة، ولكن على الرغم عني»[4].

وحتى ينقذ مصطفى كامل عزيزته ويرفع من شأنها حتى تتمكن من معرفة حقوقها، وترفع براثن الجهل والتخلف الذي كان معشعشًا حول عقلها، بدأ في

(١) عشق مصطفى كامل، ص ٤٠.
(٢) نفسه، ص ٤٩.
(٣) نفسه، ص ٧٦.
(٤) نفسه، ص ٧٠.

تعليمها القراءة والكتابة بعد أن منعها أهلها من ذلك بحجة أن وظيفة البنات هي الاعتكاف في زوايا المنزل، وأن العلم للرجال فقط والمدارس للأولاد دون البنات[1]، وبمعاونته تمكنت عزيزة من تعلم القراءة والكتابة بكل سهولة كما تعلمت اللغة الفرنسية، وصارت تساعد مصطفى كامل في أعماله الكتابية[2].

وحتى يتلقى أبناء مصر العلم مثل عزيزة، وتنقشع عن عقولهم براثن الجهل أنشأ مصطفى كامل المدرسة المعروفة باسمه بسراي السلحدار بحارة مرجوش في ١٧ مارس ١٨٩٩م، وجعل التعليم فيها على أساس عصري، يتم فيه توجيه النشء الجديد إلى التربية القومية التي تغرس في نفوسهم الفضائل الوطنية والدينية[3].

وعلى الرغم من حب مصطفى كامل لعزيزته فقد أوضح المؤلف أن هذا الحب الطاهر العفيف لم يكن القصد منه الاقتران بها لأنها أعز لديه من زوجته، وأقدس في فؤاده من قرينة، بل غاية فؤاده أن تكون خالصة ممن تكرهه، وأن يقوم هو على خدمتها حتى تصل إلى غايتها الأولى وهي الاستقلال خاصة وأن الحياة عدم في الأسر، والحرية أسر في الاحتلال، والاحتلال عار على الرجال[4] والرجال لا يصح لهم أن يرضوا بالعار.

لقد أحب مصطفى كامل محبوبته مصر حبا خالصا لا يشوبه التفكير في انتفاع أو في مصلحة، ووضع في اعتباره هدفًا واحدًا وهو الجلاء، وعدوا واحدًا هو الاحتلال لذلك كان عليه أن يتعاون مع كل القوى الداخلية والخارجية المعارضة للاحتلال[5] وهذه القوى كانت عشيقات مصطفى كامل الأخريات كما ذكرها المؤلف.

---

(١) نفسه، ص ٢٤.

(٢) نفسه، ص١٠٢.

(٣) الرافعي: مرجع سابق، ص ١٤١- ١٤٢، وعشق مصطفى كامل، ص١٣٠.

(٤) عشق مصطفى كامل، ص ٩١.

(٥) محمد أنيس: صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٦٢، ص١٣.

وبالنسبة لعشيقة مصطفى كامل الثانية والتي كانت تقيم بشارع عابدين، فكانت الأريكة الخديوية[1] ففي أوقات كثيرة تعلق مصطفى كامل بالعرش الخديوي، وحول القلوب إلى محبته رغبة في إنقاذ مصر من الاحتلال بعد أن تعلم من أستاذه عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية أن اصطدام العرابيين بالخديو توفيق قد مكن الدسائس الإنجليزية من أن توقع الفتنة والانقسام في مصر، ومن هنا سلك بالحركة الوطنية سبيل التفاهم مع الخديو عباس الثاني، وتفادي الاصطدام به[2]، وتعاون معه خاصة في السنوات الأولى من حكمه، ونتيجة لذلك ساند الخديو الحركة الوطنية بنفوذه المادي والأدبي، كما اقترح مصطفى كامل فكرة الاحتفال بعيد جلوس الخديو، وكان أول الداعين لإقامة احتفال بحديقة الأزبكية بهذه المناسبة في الثامن من يناير ١٨٩٣ حيث خطب خطبة كان لها تأثير كبير على الأفئدة[3]، وإذا جاز للحبيب أن يختلف مع حبيبه، فإن مصطفى كامل لم يقف بجانب الخديو على طول الخط، فقد اعترى الفتور علاقتهما في بعض الأحيان خاصة بعد مقابلة ديفون في أغسطس ١٩٠٤[4]، وعندما فكر الخديو في مهادنة الاحتلال عارضه مصطفى كامل مما يعني أن الخديوية عند مصطفى كامل كان أداة من أدوات الكفاح لا غاية، وأن مصطفى كامل اتخذ من الخديو وسيلة لتوحيد الأمة المصرية على مقاومة الاحتلال، خاصة وأن الحركة الوطنية كانت أضعف من أن تقف بمفردها في معركتها الشرسة ضد الاحتلال.

وعن عشيقة مصطفى كامل الثالثة، فكانت القسطنطينية مقر السلطنة العثمانية وعاصمة الخلافة الإسلامية[5] حيث ظهر هيامه بدار الخلافة، ودافع عنها في كتابه

(١) عشق مصطفى كامل، ص ١٤٠.

(٢) الرافعي: مرجع سابق، ص٣٨.

(٣) عشق مصطفى كامل، ص٨١.

(٤) اللواء: عدد ٢٥ أكتوبر ١٩٠٤.

(٥) عشق: مصطفى، ص ١٥٠.

«المسألة الشرقية»[1]، وفي مقالاته الرنانة بجرائد المؤيد والأهرام وبعض الجرائد الأوروبية.

وعلى الرغم من ذكر المؤلف أن حب مصطفى كامل للدولة العلية كان مماثلا لحبه لمصر، وأن عشقه للعرش الحميدي كان مشابها لعشقه للأريكة الخديوية العباسية، وأن ميله إلى المسلمين خصوصا والشرقيين عمومًا كان مساويًا لميله إلى المصريين فإن استخدامه لفكرة الدعوة إلى الخلافة، ودفاعه عن فكرة الجامعة الإسلامية كان سلاحه لمناوأة الاحتلال البريطاني، وإحراج مركزه في مصر من الناحية القانونية، كما كان ورقة رابحة استغلها مصطفى كامل لإثارة الدول الأوروبية ضد إنجلترا.

ومع أن البعض أساء تصوير خطة مصطفى كامل تجاه الدولة العثمانية على أنه من أنصار السيادة العثمانية على مصر، فإن مصطفى عمل على تجنب الخلاف مع السلطان، واعتبر أن ارتباط مصر بتركيا يعد أحسن احتجاج على استمرار الاحتلال، وأنه من الحكمة توثيق الروابط الودية بين مصر وتركيا لكي يتخذ من موقف تركيا وسيلة لمقاومة الاحتلال وإقامة الحجة عليه.

حقيقة لقد آمن مصطفى كامل في أولى سنوات جهاده بالسيادة العثمانية، ولكنه عدل عن ذلك الموقف، واستبدل بسياسته التي كانت تركية الطابع إلى حد كبير إدراكًا وطنيًا سليمًا[2].

أما عن عشيقة مصطفى كامل الرابعة فكانت باريس بلد النور والحرية[3] والتي سافر إليها للتبحر في الحقوق، والتعمق في علوم العصر، وهناك تعرف على كبار

(١) طبع في عام ١٨٩٨ بالقاهرة، ونشرته مكتبة الآداب.

(٢) المصري مذكرات الخديو عباس الثاني في ١٤ مايو ١٩٥١.

(٣) عشق مصطفى كامل، ص١٥٠.

الصحافيين وعظماء السياسيين، وهناك حصل على شهادة الحقوق من تولوز، وهناك استعان بفرنسا مقاومة الاحتلال حيث رفع باسمه إلى مجلس النواب الفرنسي في ٤ يونيو ١٨٩٥ رسمًا كبيرًا يمثل مصر والاحتلال الإنجليزي بشكل يدل على توسل المصريين إلى فرنسا أن تساعدهم على نيل حريتهم، ورمز إلى مصر العزيزة بغادة فقيرة عارية من كل ملابسها إلا ما يستر عورتها مكبلة بسلاسل الأسر وأغلال الظلم والاستعباد، والأسد البريطاني قابض على هذه القيود، وعلى يسار تلك الصورة ترى النيل وقد مثل بشيخ من شيوخ الأعصر الخالية متكئ على إناء تنفجر منه عيون النيل[١].

وعلى الرغم من الاتهام التقليدي الذي يوجه لنشاط مصطفى كامل في فرنسا بأنه لم يكن يفهم طبيعة السياسة الفرنسية تجاه المسألة المصرية، وأنه لم يفهم أطماع فرنسا نفسها في مصر، فإن الحقيقة هي أن مصطفى كامل كان على دراية تامة بطبيعة السياسة الفرنسية في مصر، لكنه كان يأمل في استغلال التنافس الفرنسي البريطاني لمصلحة القضية المصرية[٢]، ومن هنا قام بالاتصال بجوليت آدم الصحفية الفرنسية لتتولى من الجانب الصحفي الدفاع عن القضية المصرية بدلًا من المسيو دلونكل الذي كان الخديو قد رشحه له للتعاون معه[٣] من أجل مقاومة الاحتلال في الصحافة والمنتديات الفرنسية.

والغريب في الأمر أن المؤلف تجاهل ذكر دور جوليت آدم في مساندة مصطفى كامل على الرغم من أن صلته بها ظلت تقوى على مر السنين[٤] خاصة، أنها أوجدت له علاقات نفيسة في عالم الصحافة الفرنسية، ورتبت له مقابلة مع المسيو

(١) نفسه، ص١١٢.

(٢) أنيس: مرجع سابق، ص١٦.

(٣) عشق مصطفى كامل، ص ١٠٣.

(٤) للتفاصيل: انظر الرافعي: مرجع سابق، ص ٥٨-٦٢.

دلكاسية وزير الخارجية الفرنسية عرض فيها مصطفى كامل تطورات القضية المصرية متقدًا سياسة فرنسا في مصر[1]، وإلى جانب ذلك فقد ظلت جوليت آدم سندًا قويًا لمصطفى كامل، وكان دورها في حياته السياسية واضحًا، فهل تعمد المؤلف عن قصد عدم ذكر هذه السيدة الفرنسية لسبب آو لآخر؟

الواقع أنه على الرغم مما قيل وتردد حول علاقات أخرى بينها وبين الزعيم المصري الشاب، فنحن نستبعد ذلك خاصة وأن فارق السن بينهما كان يزيد عن السبعة والثلاثين عامًا بشهور[2].

وعلى أية حال فإن مصطفى كامل لم يقصر نشاطه السياسي والصحفي على فرنسا وحدها، بل تردد على كثير من الدول الأوروبية لاسيما ألمانيا والنمسا والمجر[3].

وهكذا تحالف مصطفى كامل مع كل القوى المعادية للاحتلال مثل الخديوية، والدولة العثمانية، وفرنسا بقصد تصفية الاحتلال.

وفي النهاية يمكن القول: إن مصطفى كامل كان عاشقًا لمصر، وكان مطلبه الأول هو الاستقلال، وعدوه الأول هو الاحتلال، وأن وطنيته كانت أسبق وأقوى من الجيل الذي ظهر فيه، وأقوى من الحوادث التي اعترضته، فقد تغلب عليها بقوة وطنيته، وكان يزداد ثباتًا في الكفاح والنضال كما ازدادت في طريقه العقبات خاصة وأن عشقه الأول والأخير الذي عاش به ومات عليه كان مصر.

لقد ذكر مصطفى كامل أبناء العزيزة مصر بماضيهم وجلال تاريخهم، وسما بالوطنية المصرية إلى مرتبة العقيدة حتى أصبحت أسلوبًا في الكفاح، وكان طريقة إلى ذلك هو الأسلوب السهل المؤثر على سامعيه لدرجة أن خطبه جرت على ألسنة

(١) مذكرات محمد فريد: مظروف رقم (١) خطاب من مصطفى كامل إلى محمد فريد في ١٠ أغسطس ١٨٩٨.

(٢) ولدت جوليت آدم في ٤/ ١٠/ ١٨٣٦، بينما ولد مصطفى كامل في ١٤/ ٨/ ١٨٧٤.

(٣) عبد المنعم الجميعي: الخديو عباس الثاني والحزب الوطني، القاهرة، دار الكتاب الجامعي ١٩٨٢، ص١٤٢.

الناس وكأنها أناشيد وأغانٍ وساعده على ذلك أسلوبه الوجداني الذي اعتمد على الجمل الضخمة التي رددتها الجماهير «لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة» بلادي بلادي لك حبي وفؤادي لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي، لك عقلي ولساني، لك لبي وجناني فأنت أنت الحياة ولا حياة بدونك يا مصر».

بهذا الأسلوب الوجداني، وبهذه القوة الخطابية خاطب مصطفى كامل شعور الشبيبة المصرية، واستنهض همتهم يضاف إلى ذلك ما كان يكتبه من مقالات تنتقد بالوطنية بكل ذلك استطاع مصطفى كامل أن ينهض بأعباء دعوته متقدما إلى الأمام رافعا علم النهضة، ومرددًا نشيد الأمل بصوت تهتز له الأفئدة حتى وصفه لطفي السيد بأن شعاره الوطنية، وغرضه الوطنية، وكلماته الوطنية، وحياته الوطنية حتى لبسها ولبسته فصار بينهما تلازم مستمر في كافة المواقف.

وهكذا مضى مصطفى كامل في جهاده، يتقدم الصفوف ويجود بحياته من أجل العزيزة مصر حتى صعدت روحه إلى دار البقاء.

رحم الله هذا الزعيم وأدخله فسيح جناته.

د. عبد المنعم إبراهيم الجميعي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

عشق
المرحوم مصطفى كامل باشا
وأسماء عشيقاته

بقلم أ.ف

«من عشق فعفّ ثم مات مات شهيدًا» (حديث شريف).

كان للمرحوم مصطفى كامل باشا بين جنبيه قلب خفاق ككل إنسان، وجنان يهتز وأي جنان، فكان له أن يعشق وأن يحب ويهيم، ويتغزل ويذوق في الحب العذاب الأليم.

«المؤلف»

obeikan.com

المرحوم مصطفى باشا كامل

ولد في أول رجب سنة ١٢٩١ – توفي في ٨ محرم سنة ١٣٢٦

obeikan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، ولا يشكر على الضراء إلا إياه، وصلى الله على أفضل رسله وأنبيائه، وأحب خلقه إليه، وأقرب أحبائه، وعلى آله وأصحابه وأشياعه وأدعيائه.

وبعد فقد انهد الجبل ومات البطل (فليحي الوطن)، وسكت الصوت العالي، ونام دليل المعالي، بل مات قائدنا في الميدان، وفقدناه وسط المعمعان، وعدمناه وقت الرهان، وحين السبق دون انتظار ولا أوان، مات وفات، وكانت أعماله في الوطنية آيات بينات، ولم أكن لأنتظر أن أكتب عنه بعد الممات، بل كان عزمي رفع هذا الكتاب إليه في حياته، ليعلم أننا مطلعون على عشقه، وعارفون عشيقاته، ولكنه مات، ودخل رمسه الشريف، مات وقبرنا جسده الطيب المنيف، ولم يبق من أثره إلا أعمالٌ مجيدة وآثارٌ غالية عديدة وروح زكية ترفرف حوالينا، وتطوف بين صفوفنا، وتزور نوادينا، ومن كان كذلك لم يمت، ومن فات، وترك هذه الآثار الأبدية وراءه لم يفت.

فإلى هذه الروح الدائمة أرفع كتابي هذا.

فيا أيها الروح المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية وبلغيه عنا السلام وأزكى التحية.

ارجعي إليه فقولي: إني تركت قومك لا يهدأ لهم بال، ولا ينصلح لهم من الحزب عليك حال وأحدهم عرض على كتابًا عن عشقك وصف فيه شريف غرامك، وقد ذكر أسماء عشيقاتك.

العشق فخر الرجال والحب والد الآمال ، لذلك لم يكن عارفو الفقيد المبرور يعدون عشقه عيبًا أو رذيلة بل يسجلونه له حسنة وفضيلة، ويقولون في العشق الفخار.

كان له رحمة الله عليه بين جنبيه قلب خفاق ككل إنسان وجنان يهتز وأي جنان، فكان له أن يعشق وأن يحب ويهيم ويتغزل ويسهر فلا ينام الليل البهيم ، ولكنه كان في عشقه عاليًا كأفكاره، وكان في غرامه شريفًا ساميًا كما هو في كل أحواله وأطواره، عفيفًا نقيًا نقيًا صدق فيه الحديث الشريف «من عشق فعفّ ثم مات مات شهيدًا».

فعلى هذا الشهيد الرحمة والرضوان، وله نطلب المسامحة والغفران أسكنه الله فسيح الجنان وألهمنا على فقده الصبر والسلوان.

مولد مصطفى كامل باشا وكلمة عنه[1]

وُلد فقيدنا العزيز العظيم في أول رجب سنة ١٢٩١ هجرية (١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ في منزل المرحوم والده علي أفندي محمد باشمهندس مديرية الدقهلية، وهذا المنزل لا يزال إلى الآن في حارة درب الميضة بقسم الخليفة في مدينة القاهرة، وتوفي يوم (الاثنين) ٨ محرم سنة ١٣٢٦ (١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ يكون عمره ٣٤ عامًا هجريًا وستة أشهر وثمانية أيام، ولكن كان كل يوم من حياته أكثر من عام في حياة غيره لأنه في هذه الأعوام القليلة بلغ شهرة لم يحلم بها الشيوخ، وأتى من جليل الأعمال ما جعل اسمه مقرونًا بأكبر الأسماء عظمة وأسماها شهرة، وكأنه قد اختط لنفسه في كل أعماله خطة لم يحد عنها، وكانت كل أعماله موجهة إلى رفعة شأن وطنه وأمته، فهي مرمى قوس عزيمته ونهاية مجهوداته وغاية ما كانت تتجه إليه آماله.

عندما بلغ المرحوم السادسة من عمره جاء له المرحوم والده بالأساتذة كعادته مع أولاده فهذبوه ولقنوه مبادئ القراءة والكتابة، ثم أدخله مدرسة والدة المرحوم عباس باشا الأول، فأخذ في تعلم الدروس الابتدائية، وقبل أن يتمها انتقل والده إلى دار البقاء، فكفله شقيقه سعادة حسين واصف بك مفتش ري الفيوم، فقام على أمر تربيته أحسن قيام، وأدخله في مدرسة القربية، فجد واجتهد حتى فاق الأتراب والزملاء، وقد حاز قصب السبق على كل التلاميذ عند امتحانه في حفلة حافلة حضرها المرحوم توفيق باشا الخديو السابق، ثم ألحق بالمدرسة الثانوية، وكان يومئذ في الحادية عشرة من عمره، ومع صغر سنه فإنه لم يمكث إلا أربع سنوات حتى أتم كل دروسها، وكان في كل سني الدراسة نابغة إخوانه.

(١) نقلًا عن جريدة اللواء الصادرة يوم الثلاثاء ١١ فبراير ١٩٠٨.

فمما تقدم نعلم أن الفقيد تعلم علومه الابتدائية ، وكان الذكاء يلمع في عينيه والنشاط ينير جبينه، فبرع في المدرسة، وكان أمهر الرفقاء ، وأولهم ، فأتمها دون أن يتخلف سنة في أحد الفصول، ودخل القسم الثانوي وعمره في الحادية عشرة ، وهو سن كما يراه القارئ يعد الإنسان فيه طفلًا ، ولكن المترجم في طفوليته تلك كان رجلًا في القسم الثانوي مع زملائه من الرجال، وكان في تلك الطفولية يخطب على رفقائه الرجال ، وينفخ بنفسه الضعيف إذ ذاك على نار وطنيتهم الخامدة على أمل إضرامها، فسبحان من ألهمه الذكاء وحقق آماله العالية الشماء.

كان المرحوم في تلك الطفولية يقف موقف الرجل أمام أعظم رجال ويخاطب بلسان الشيخ أهيب شيخ ويجادل بلسان العالم أعلم عالم.

وروى الراوون الثقاة أنهم رأوه رأي العين في مجلس حافل بالكبراء والعظماء متصبًا كأشد الرجال يخاطب المرحوم علي باشا مبارك ناظر المعارف المصرية إذ ذاك ويطلب منه بأثبت جنان شيئًا في مصلحته ، ويقول له: «من يدريك أني لا أكون عظيمًا أخدم أمتي ووطني بأنفع مما تخدمها به أنت الآن».

وكان المرحوم علي مبارك باشا يعجبه في مصطفى كامل الصغير شجاعته[1] ، وقوة جنانه، وينشرح صدره من إقدامه وعدم مبالاته ، فسبحان من حقق آماله فنفع به الوطن بأكثر مما نفعه به مبارك باشا وآلاف مبارك (ولو أن مباركًا كان من أنفع الرجال وفخر الأوطان) ولكن شتان.

كان المترجم في مدرسته الثانوية يضطرم فؤاده وطنيه فيجمع إخوانه الصغار ويدعوهم إلى الائتلاف والتحاب ويحضهم على الاجتهاد في الدروس ويلفتهم إلى حب الوطن ويستفزهم إلى خدمة مصر.

(١) قابله حلال جولة تفتيشية على المدارس في عام ١٨٩١ ولقب مصطفى كامل «بلقب امرئ القيس».

أنهى المترجم دروسه الثانوية في سن الخامسة عشرة ، فكان أعجوبة أخوانه وموضع إعجابهم ومحط أنظارهم ومرمى فخار أهله وخلانه.

في هذا العمر كان المترجم في عداد طالبي مدرسة الحقوق على أمل أن يكون في سن التاسعة عشرة قاضيًا يتربع منصة القضاء ، ليحكم بالعدل كما أمر الله بين الرجال والشيوخ ، فسبحانه يؤتي الحكمة من يشاء.

ففي هذا العمر كنت ترى بين رجال مدرسة الحقوق الذين هم رجال الأمة وعظماء شبانها فتى أمرد نحيل الجسم لامع العينين ذكاء ملتهب الرأس نشاطًا هو مصطفى كامل.

حياته العملية

بدأ المرحوم مصطفى باشا كامل حياته العملية الصحيحة بابتداء دخوله مدرسة الحقوق كأنه رحمه الله على صغر سنه كان عارفًا بمقدار مركزه من القدم وشاعرًا بمقدرته العظيمة ومواهبه السامية إذ رأى مدرسة الحقوق الخديوية على أهميتها إذ ذاك ووعورة دروسها وصعوبة فنونها قليلة بالنسبة لمداركه وعقله، فانتظم أيضًا بمدرسة الحقوق الفرنساوية الليلية، فكان غفر الله له تلميذًا في الليل والنهار، وكان في مدرستين في عمر واحد.

وفي هذه الهمة وهذا النشاط تعريف كاف للوقوف على ذكاء الفقيد وسمو عقله ومداركه التي يستحيل أن توجد في غيره.

وليست الغرابة في تلمذته لمدرستين فقط بل الأغرب والأعجب في عدم اكتفائه بهما والتفرغ لهما، لأنه أدخل نفسه في الوقت عينه عضوًا في كثير من الجمعيات والسياسة، فكان العضو العامل بمعنى الكلمة في جمعيات الهدى والاستقامة والتعاون والاعتدال والحزب الوطني.

كان يخاطب في كل هذه الجمعيات الرجال والفتيان فيغلب عقولهم بفصاحته ويأسر ألبابهم ببلاغته، ويؤثر على إحساسهم بعلو معاني خطبته شاب دون السادسة عشرة من عمره موضع إعجابهم ومحط فخارهم ومرمى أنظارهم وآمالهم إذا سألتهم عنه إذ ذاك قالوا لك بملء الأفواه أنه مصطفى كامل، فإذا أظهرت استغرابك وأردت الاستفهام منهم عنه أو إذا قلت: ومن هو مصطفى كامل؟ هزئوا منك وهزوا أكتافهم ولووا أعناقهم عنك وربما أجابوك أنك تحت

الأرض أو لست من سكان مصر حيث أنك تجهل مصطفى كامل ، ولم تكن كل هذه مشاغله فقط أثناء وجوده في مدرستي الحقوق ، بل كان يكتب أيضًا في كثير من الجرائد والمجلات العربية والإفرنجية مصرية وأجنبية كالمؤيد والأهرام وغيرهما ، وكانت الجريدة التي يكتب لها مقالة تتباهى على زميلاتها وتتيه عجبًا بل كانت عندما تصلها منه المقالة أرجأتها إلى اليوم التالي حتى تعلن عنها استلفاتًا للأنظار وترويجًا لها ، فلا تكاد تظهر في يومها حتى تتخاطفها الأيدي وتلتهمها أنظار القراء.

لم تكن كل هذه مشاغله فقط ، بل كان أيضًا مؤلفًا مجيدًا ألف رواية الأندلس وكتاب أعجب ما كان في الرق عند الرومان، وكتاب حياة الأمم وهو في نفس المدرستين تلميذ فيهما بروحين وعقلين ، كل ذلك كان مضافًا على تحريره مجلة (المدرسة) التي أنشأها والتي أخذت المكانة الرفيعة حتى أن نفس نظارة المعارف العمومية المصرية اشتركت فيها بخمسين نسخة ، واشتهرت هذه المجلة أيما اشتهار وراجت أعظم رواج ، وكانت الوطنية تتجسم طيّ صفحاتها لعظم بلاغة محررها وشدة فصاحته وقوة تحريره، فكانت هدى المهتدين ودليل الضالين وسراج المستنيرين ، فكم فتحت من عيون للفتيان والشيوخ فغرفوا الوطنية الحقة وتشجعوا على فتح أفاههم وتحريك ألسنتهم داخلها تلفظًا بكلمة وطن ولفظة وطنية ومصر ومصرية التي كانت قد اندثرت حينًا من الزمن وحّذفت من قواميس القطر .

كان مصطفى كامل إمام المصريين ودليلهم إلى الوطنية يسير أمامهم إليها ويجرهم وراءه نحوها وهو يترنم في الطريق ويسجع في الدرب بأعلى صوته فيطرب السامعين ويشجى المنصتين:

أهل المودة والسنن	هيا لكي نعلي الوطن
ونعيد مجدًا قد دفن	ونفوز بالنصر المبين
فالحر لا يرضى المقام	بمكانة فيها يضام

والـــــذل تابـــــاه الكـــــرام والعـــــز للعليـــــا رهـــــين

كانت هذه أناشيده الوطنية وأدوار غنائه الحماسية فكان طول عمره في حياته العملية إلى أن قبض إلى رحمة ربه الكريم يترنم بهذه الأغاني ويقول: بلادي بلادي.

***

وُلد مصطفى كامل بدرب الميضة كما قدمنا، وكان في أحد المنازل المجاورة لمنزل والده بنت صغيرة يتيمة وُلدت قبله منذ مدة إلا أنها كانت رضيعًا.

ففي أحد الأيام ذهبت به المرحومة والدته إلى هذا المنزل كعادة الجيران من الزيارة والتواد، فجرت بينه وبين الطفلة وهما في المهد حادثة كانت حديث الاستغراب بين الوالدات والعائلات.

ذلك أن أمه تركته بجانبها وكانت الطفلة ساهدة بعيدة عنه، فإذا به قد تدحرج حتى وصل إليها فضمها إليه ورقد مطمئنًا بجانبها، وفتحت الطفلة عينيها الصغيرتين وحملقت في وجهه ثم ارتسمت على ثغرها ابتسامة له.

لا نقدر على تأويل هذه الحادثة ولا تكييفها ولا يمكننا إسنادها إلى شيء ولكنا نقول: إنه ربما كان الطفل في مرتفع وأخذ يضرب الأرض برجليه كما هي عادة الأطفال وجبلتهم التي جبلوا عليها فاهتز جسمه من هذه الحركة فتدحرج من المرتفع حتى وصل على موضع الطفلة، أما الابتسام فهو عادة فطرية في الأطفال تسميه الأمهات: «تضحيك الملائكة» إلا أنه بلا شك يدل على سرور وارتياح لأن الأطفال يبكون عندما يلزم البكاء ولا يضحكون في موضع البكاء.

الطفل إذا شعر بالجوع بكى وإن تألم بكى وإن انزعج بكى، ولكنه لا يضحك إلا إذا كان لا يتألم ولا هو منزعج، إذًا لا يضحك إلا كما يضحك الكبار أي سرورًا وانشراحًا.

هكذا أقول مع استغرابي لحادثة هذين الطفلين وعدم قدرتي على تأويلها فالطفلة لم تكن لتضحك للطفل للسبب الذي نتوهمه أو الذي توهمته والدته وأهل الطفلة فسررن منه وعقدن النية على تزويجهما ببعضهما ولكنني أقول: إنه تدحرج إليها والتصق بها وهي ابتسمت له والسلام.

ومن ذلك الحين أخذت الألفة بين الطفلين تتعاظم وتكبر فرضعاها ممزوجة بالألبان وألفاها، وهما في الأحضان فكان الطفل إذا بكى أسكتوه بها، وإذا الطفلة بكت اسكتوها به تقول له أمه: اسكت لئلا تسمع «عزيزة» بكاءك فتغضب منك فيسكت لساعته، ويقول أهلها: اسكتي لئلا يسمع مصطفى بكاءك فيحزن فتبتسم حالًا.

كانت الطفلة يتيمة وكان أمر تربيتها موكولًا إلى بعض أقاربها من نساء ورجال لم يهتموا بها تمام الاهتمام لفقرهم، ثم لجهلهم التربية الحقة فكانت التعسة ضائعة بينهم كسقط المتاع رثة الثياب قذرة الأهاب لولا ما يجللها من جمال الخلقة وما يشرق على جبينها من خفة الروح وشدة اللطافة والظرف الذي جبلت عليه.

كان مصطفى أحسن حالًا وأرغد عيشًا فكان له لعبٌ وأدوات لهوٍ كعادة أولاد الأغنياء، وكان يحصل على ما يشاء ويريد بلا عناء ولا بكاء وكان له أن يحمل قطعة أو قطعتين من النقود الصغيرة، وكانت عزيزة محرومة من كل هذه الأشياء بلا استثناء، فكان لتعلقه بها وحبه لها يذهب إليها بكل ما تصل عليه يده فيقاسمها إياها، ويشاطرها نقوده، ويعطيها مما في يده فلا يتركها إلا وهي تضحك فرحًا وتجري مرحًا.

كانت أكبر منه سنًا إلا أنها مفتقرة إليه فكان سلوتها، والذي ينشرح صدرها بحديثه ويذهب ضجرها بمسامراته وتنبسط لرؤيته أسارير وجهه الجميل.

كان مصطفى لعزيزة كالأخ الشقيق يبكي لبكائها ويحزن لحزنها ويضحك لضحكها ويفرح لفرحها.

كان يبكر بكور العصفور فيطير من عشه على أجنحة الابتهاج والجزل إلى عشها فيجدها قد سبقته في التبكير وقامت على الباب في انتظاره فيبتسم لها وتبتسم له ثم يتعانقان.

❖❖❖

تلك كانت طفوليته وذلك كان ابتداء عشقه وحبه، ولكنه لا يعرف معنى الحب ولا ما هو العشق، ولا يدرك سبب مداومته على مقابلة عزيزة ولا لماذا لا يلعب مع غيرها من بنات حارته ولا يدري سبب حبه للانفراد بعزيزة وحبها للانفراد به ولا عدم رغبتها في الاختلاط بباقي الأولاد، ولا يعرف معنى ارتياحه لوضع ذراع عزيزة على كتفه وتطويقه عنقها بذراعه، لم يكن يدري أسباب كل تلك الأعمال لأنه لم يكن يفكر فيها ولا طرقت له على بال لصغر سنه، فكهذا تولد في قلبه الصغير وهو صغير حبّ عزيزة وامتزج عشقها بدمه وسرى في عروقه فشبّ عليه وتأصل فيه وصار منه كالروح من الجسد.

❖❖❖

ولما بلغ مصطفى السادسة من عمره أرسله المرحوم والده إلى مدرسة والدة عباس الأول لتلقي الدروس الأولية فكان اليوم الأول الذي غاب فيه عن عزيزة أطول أيامه وأشدها على نفسه، ولطالما حدثه فؤاده وزين له عقله القاصر إذ ذاك أن يتخلف عن المدرسة ويهرب من التعليم حبًا في القرب من عزيزته وتعلقًا بها ولكنه لم يكن يفعل ما ينكره عليه عاقل بل كان مدفوعًا إلى المدرسة بدافع الطاعة الوالدية التي كان من صغره يقدسها ويحترمها.

لم يلاحظ عليه أحد كرهًا للمدرسة أو نفورًا من التعليم ، ولكن غاية ما استلفت أنظارهم إليه قيامه من النوم باكرًا وذهابه كل صباح إلى منزل عزيزة حيث يقضي معها الوقت إلى ما قبل موعد المدرسة بمسافة الطريق وهكذا كان دأبه كل يوم كأنه فرض مقدس.

كان والده رحمة الله عليه تقيًا صالحًا فعلمه كدأبه مع أولاده الصلاة وعوّده على مداومة أدائها ومصطفى عود نفسه أيضًا على فريضة أخرى هي زيارة عزيزة كل صباح، فكان يؤدي بلا انقطاع فرائض الله وفريضة الفؤاد.

ولما توفى والده رحمه الله حزنت عزيزة لحزنه وجزعت لجزعه وبكت بكاء مرًا عليه فكان يواسيها بدلًا من أن تواسيه ويسليها بدلًا من أن تسليه ، وكان يقول لها تلطفًا : إنه غير حزين لأنه قد تساوى بها في اليتم ، وفقد الوالد وحرمانه من عطفه وحنانه، فما أعظم ذاك الشعور وأفخر ذاك الإحساس.

صار مصطفى بعد وفاة والده أكثر حبًا لعزيزة وأشد هيامًا بها عن ذي قبل كأن المشابهة بينهما في اليتم قد أحكمت رباط ألفتهما واحتلت أساس بناء غرامهما وثبتت دعائم حبهما أيما تثبيت حتى لقد كان يهون عليه ألا يذوق طعامًا طول يومه على أن لا يفارق عزيزة لحظة واحدة من حياته بل كان من السهل عليه أن تفارق روحه الجسد ولا يبعد عنها دقيقة من نهاره ، حتى عُرف أمره معها واشتهر حبه لها وذاع خبر غرامه لها وهيامه بها بين جميع الأولاد وتلاميذ المدرسة والعائلات من جيرانهما.

ذلك كان حب الأطفال أو ألفة الصغار فلم يكن يعاب به لو يؤاخذ عليه بل بالعكس كان كل من رآهما معانقين بعضهما سائرين كتفًا لكتف يكاد جسدهما يظهر للرائي جسدًا واحدًا لشدة التحامهما وتقاربهما يعجب لهما ويفتر ثغره ابتسامًا.

كان الأولاد إذا رأوها منفردة دلوها على محل مصطفى أو إذا رأوه وحده يقولون له : إن عزيزة تنتظرك على باب الدار دون أن تكلفهم حمل الرسالة، كانوا إذا رأوها سألوها أين مصطفى؟ وإذا رأوه سألوه عنها، بل إذا رآها واحد في موضع يلتفت حوله باحثًا عن مصطفى لتحققه من وجوده أينما تكون وحيثما تسير، وبالجملة اشتهر مصطفى أنه ظل عزيزة وهي روحه.

***

أدخله شقيقه الأكبر بما له من حق الكفالة عليه بعد والده مدرسة القرية الأميرية لتلقي العلوم الابتدائية، فكانت الشقة بعيدة عليه لبعد المدرسة عن منزله وعدم إمكانه تمضية وقت طويل كل صباح مع عزيزة كما كان يفعل قبلًا إلا أنه استعاض عن طول الوقت بساعات من المساء فكان ليلهُ مقسومًا ثلاثة اشطر شطر لعزيزة والائتناس بها وشطر لدروسه وحفظها، والشطر الثالث لنومه وراحته، وفي الصباح يبكر كعادته فلا يفطر إلا بعد تأدية الفريضتين ذكر الله والصلاة ثم ذكر عزيزة ومقابلتها، كبر مصطفى في مدرسة القرية لا سنًا ولا جسمًا بل مداركه وشعورًا، ارتقى عقله واتسع ذهنه وعلت همته وعظمت نفسه ولكنه لم يكبر فقد كان كما هو حوالي التاسعة من العمر نحيف الجسم خفيف الوزن.

كان ابن موت كما تسمي النساء مثله يكبر في شهر ما يكبره غيره في أعوام، كان رجلًا في جلد طفل، وكان طفلًا في رأسه عقل رجل.

كانت مداركه تعلو وحبه يعظم معها، شرفت إحساسته وكبرت نفسه فنما غرامه وعلا هواه.

❖❖❖

وكانت عزيزة أثناء هذه المدة تشب على حب مصطفى فكبرت كما كبر وروحها قد اشربت حبه، كانت صغيرة وعيناها مغمضتين فكبرت كما كبر وروحها قد اشربت حبه ، كانت صغيرة وعيناها مغمضتان فكبرت وهي تبصرة فألفتهُ صغيرة وعرفتهُ طفلة وفتحت عينيها فإذا هي لا ترى إلا مصطفى فعرفتهُ أخاها وتحولت الإخوَّة شيئًا فشيئًا إلى محبة ثم إلى هوًى، وإن شئت فقل عشقًا وغرامًا، أنه صار رويدًا رويدًا هيامًا وأي هيام .

خلقت يتيمة فقيرة جاهلة بأحوال الدنيا منبوذة أو غير معتنى بها تمام الاعتناء فوجدت مصطفى بين يديها يضمها إلى صدره فتضمه إلى صدرها ، وينظر إليها فتنظر إليه ويبسم لها فتبسم له ويقدم لها أنواع المسرات فتتقبلها منه فلا غرو أن أحبته ومالت إليه واعتمدت عليه وعلقت قلبها بهواه.

كانت صغيرة لا تدري ما الهوى أو الغرام ، ولكنها كانت تعرف أنها تود مصطفى وتحبه وتهواه، كانت تشكو إليه أحزانها وتبث إليه أشجانها وتخبره بكل ما يؤلمها أو يلمّ بها وتبكي بين يديه فيسألها وتقول له: إن فلانًا من أهلي أهانني اليوم فيلطف حزنها ويواسيها، كانت تشكو إليه ترك أهلها أهانني اليوم فيلطف حزنها ويواسيها، كانت تشكو إليه ترك أهلها لها ، فيشجعها على احتمال الآلام ويداوي جروح قلبها بمرهم ألفاظه ويدافع عنهم أمامها كي لا تسيء الظن ، فتكدر على نفسها عيشتها بينهم ، فله الله كم كان حكيمًا في الصغر والكبر ، جل شأن الله يؤتي الحكمة من يشاء.

❖❖❖

كان مصطفى الأكثر همةً وحركة وعملًا ونشاطًا من صغره لا يفتر عن العمل دقيقة ولا يتوانى لحظة ، فكان في المدرسة عاملًا مجدًا وتلميذًا مجتهدًا ونموذجًا

حسنًا يقدمه الأساتذة لباقي التلاميذ ترغيبًا لهم وتنشيطًا ويضربون لهم باجتهاده الأمثال استفزازًا لغيرتهم وتقربًا لهم كي يسيروا على نهجه ويتشبهوا به.

كان أصغر التلاميذ سنًا وأقلهم جسمًا ولكن كان أكبرهم همة وأعظمهم اجتهادًا وأولهم درجة والمقدم عليهم في كل شيء، فإذا حضر مفتش أو ممتحن انتدبه الأساتذة ونادوا به ليكون الدليل الحسن على عملهم والبرهان القويم على نجاح تعليمهم، فكان من الصغر فخرًا للمفاخرين وشرفًا للمستشرفين وكانت عائلته الكريمة تفتخر به وعزيزة تنبسط لحديثه معها عن دروسه واجتهاده وتبتسم لكل نكتة يدخلها أثناء الحديث عن باقي التلاميذ الذين تعرفهم من الحارة الموجودين معه بالمدرسة، ولو أنها لم تكن تعلم من العلوم شيئًا لأنها مهملة من أهلها وعشيرتها كما قدمنا، فكان ظلام الجهل سائدًا على عقلها، ولكن نور حبيبها المتلألئ كان ينير أسارير وجهها وكانت عيناها تلمعان ذكاء شأن كل مصري، فكانت تظهر له رغبتها في التعليم وحبها في الذهاب إلى المدرسة لتلقي العلوم وشدة حزنها من منع أهلها ذلك عنها وعدم مبالاتهم بأمرها، ولطالما قالت: إني أود أن أكون تلميذة بمدرسة نظيرك، فنذهب معًا صباحًا ونعود مساءً، وكثيرًا ما سألت أهلها وطلبت من القائمين بأمرها أن يرسلوها إلى المدرسة لتتعلم العلوم وتتلقى الدروس، فكانت لا تجاب منهم إلا بالرفض أو الضحك أو التسويف، وكثيرًا ما أجابوها: إن وظيفة البنات هي الاعتكاف في زوايا المنزل وأن العلم هو للرجال فقط والمدارس هي للأولاد دون البنات، فكانت تقول هذه الأقوال لمصطفى، وهو لا يقدر أن يدحضها أو يعززها، ولكن كان يقول: إنه لا يقدر أن يصدق مثل هذا الكلام، ومن رأيه أن العقل واحد في رأس بنت ورأس ولد على السواء ولو تعلمت البنات كما تتعلم الأولاد، لكانت النتيجة واحدة بلا مراء، وأنه يظن فقط أن إجابتهم لها بمثل هذا الجواب هو لفقرهم وعدم مقدرتهم على القيام

بشؤون المدرسة وعدم إمكانهم اتباع كل لوازم التدريس ودفع مصاريف التعليم ولوازمه من الأشياء مقرونًا ذلك بجهلهم وعدم مبالاة الأهل وجميع المصريين على السواء بأمر تعليم الذكور فضلًا عن الإناث.

كان مصطفى يضرب لعزيزة الأمثال بباقي أولاد الحارة الذين لا يذهبون إلى المدرسة ويلعبون طول نهارهم في الأزقة والشوارع وهم أكبر سنًا وأغنى عائلة، فتقول: إنني أعرفهم تمامًا، ولكن أخبارك عن المدرسة وأحاديث اجتهادك تشوقني إلى التعليم وتحببني في المدارس ولكن ما الحيلة وأهلي فقراء أو جهلاء أو كسالى أو نائمون.

❖❖❖

قال مصطفى لعزيزته يومًا: إني في المقدمة في ترتيب فرقتي في المدرسة، وإني سأكون بعد أشهر في الفرقة النهائية لهذه المدرسة وبعد سنة إن شاء الله أقضيها أتم علوم مدرسة القربية نهائيًا.

قالت عزيزة: إذًا تذهب إلى الديوان كل يوم مثل حنا أفندي والد غبريال والمعلم تادريس، وعلي أفندي وتحضر في الليل مثلهم فلا نلعب معًا ولا نروي الأحاديث (الحواديت).

قال: لا إني لا يمكنني الذهاب إلى الديوان يا عزيزة لأني صغير، فسأذهب إلى مدرسة أخرى أرقى من القربية، وأصعب دروسًا، ولكن لا أغير أبدًا مواعيد اجتماعنا ولا أقطع رواية أحاديثنا رغمًا عما تقتضيه دروس هذه المدرسة من مداومة الإطلاع والسهر في مذكراتها.

قالت: وهل هي أبعد من القربية.

قال: لا بل ربما تكون أقرب منها قليلًا واسمها المدرسة التجهيزية.

قالت: يا للعجب، كم مدرسة في مصر ؟ ولماذا لا يتعلم الأولاد في مدرسة واحدة فقط، إن بعض أقاربي يقولون: إنهم دخلوا الديوان بعد مدرسة المبتديان مباشرة، وأنت أخبرتني أن المبتديان مثل القربية ولم أسمع بالمدرسة التجهيزية إلا منك الآن، وسمعت بعض أهلي أيضا يقولون : إنهم في الديوان لا يشتغلون شيئًا، بل يكتب الواحد منهم جوابًا أو إفادة.

قال مصطفى : لا تعجبي فلو كنت تعلمت في مدرسة لعرفت ما أقوله لك، إن بالقطر المصري أي جميع بلادنا من آخر الصعيد لغاية البحر المالح مدارس كثيرة مثل القربية ولكن لا يوجد غير مدرستين تجهيزيتين فالذي يحب أن يترقي في العلوم يذهب إلى إحديهما ولا ينتهي من المدارس بانتهائه من دروس التجهيزية بل توجد مدارس أرقى أيضًا مثل مدرسة الحكماء (الطب) والمهندسين والقضاة وغيرها.

وكان الليل قد أظلم فانصرفا دون أن يتبادلا الأحاديث (الحواديت) والألغاز (الفوازير) كما هي عادتهما، وبينما كان مصطفى سائرًا إلى منزله شعر بأنه كان يتكلم كأستاذه حين يلقى الدرس في المدرسة، فكبرت نفسهُ وارتفع كتفاه وأحس أن جسمه طال قليلًا، فأخذت الشجاعة من ذلك الحين تدب في عروقه وتجري في شرايينه، وابتدأت الحماسة والحمية تتولدان في جسمه، وهز النشاط همته فتحركت من ذلك الوقت حركة شديدة دامت إلى نهاية حياته، وكانت تزداد شدة من حين إلى حين.

❖❖❖

كانت المدارس الأميرية في الزمن السابق أي منذ سبع عشرة سنة تقريبًا تحتفل احتفالًا عامًا في نهاية سنتها المدرسية وتدعو إليه أولياء التلاميذ والأغنياء والأعيان

من الأهالي ويحضر ناظر المعارف العمومية بذاته بعض هذه الاحتفالات ويختبر بنفسه بعض التلاميذ وربما تكرم الخديو بالحضور أيضًا.

ففي سنة ١٨٨٥ كان احتفال مدرسة القربية الأميرية فاخرًا وعظيمًا جدًا لأن المرحوم توفيق باشا الخديو السابق تكرم بتشرف المدرسة لحضور الاحتفال بذاته الكريمة.

ولما شرف المدرسة وكان في معيته الوزراء والعظماء وناظر المعارف وكبراؤها، ولقد استولى على الحضور الاندهاش والإعجاب لما شاهدوه في أحد التلاميذ الصغار من النباهة وحسن الألفاظ وإتقان الإلقاء وشجاعة القلب وقوة الجنان وثبات الجأش.

ذلك الصغير كان مصطفى كامل الذي استلفت أنظار توفيق باشا، وتنازل إلى امتحانه بنفسه والتصفيق له براحتيه الشريفتين سرورًا وإعجابًا.

ذلك كان لصغره في السن وكبره في الدرجة والمقام المدرسي، فكان محط الأنظار ومرمى الأبصار، طفل في الحادية عشرة من عمره يتم الدروس الابتدائية بنشاط وهمة وإتقان حتى يكون الأول بين أقرانه الأكبر منه سنًا، ويقف أمام الخديو المهاب والعظماء في مثل ذاك الموقف المهيب على منبر الامتحان ويفوز بنصب السبق فيه ويجري في شوطه بأثبت قدم وأقوى جنان، إن هذا لمن فلتات الطبيعة فسبحان الوهاب المنان، انتهى الاحتفال وانصرف التلاميذ وخرج مصطفى من المدرسة، فكانت الأبصار ترمقه والأنظار ترشقه والألسنة تلهج بالإعجاب بهمته أكثر من مدحه والثناء عليه.

كان الفرح به عظيمًا عند عائلته الكريمة وابتهجت عزيزة أيما ابتهاج وباهت به باقي الأولاد الذين ابتدأ الحسد يدب إلى قلوبهم والغيرة منه تدخل في أفئدتهم ولكنه كان وضيعًا كأنه لم يرتق رقيًا نادرًا من مثله.

❊❊❊

كان عجيبًا ومن النوادر دخول تلميذ في الحادية عشرة من عمره إلى مدرسة ثانوية ومثله في هذا السن يبتدئ في التمرين على معرفة أبواب دور التعليم، ولكن مصطفى كامل نابغة أقرانه وابن الطبيعة وصنعها وأعجوبة الدهر كان في الحادية عشرة من العمر طالبًا بمدرسة الحكومة الثانوية وأول الفائزين في امتحان المدارس الابتدائية النهائية وفخر الأساتذة والتمثال الحي على ذكاء المصريين ونباهتهم.

كان دخوله إلى المدرسة الثانوية ابتداء تاريخ جديد في حياته شعر معه أنه صار رجلًا وأنه في موقف حرج بين أقرانه.

كان سامي المدارك فأدرك أنه الآن رجل في مدرسة عالية، تلقى عليه الدروس العالية كباقي أقرانه الكبار فعلم أنه صار في حياة عملية جديدة تختلف كل الاختلاف عن البشر سنوات من عمره التي قضاها بين رضاع وفطام وترعرع ولعب ومرح ووقوع ومسامرة لعزيزة ورواية أحاديث معها وتفسير ألغاز وتعليم ابتدائي كبير، تلك حالة صبيانية ومعيشية طفولية تناديه الودائع وتقرئه السلام، وهذه حياة عملية شاقة تمد إليه يدها بالتحية والإعظام، مد إليها يدًا قوية وحياها بالترحيب والتأهيل وعاهدها على الولاء والوفاء، فثابر وجد، واشتغل واجتهد، حتى حفظ في فرقته العالية، ترتيبه في مدرسته الابتدائية، والتصق به الاسم السابق واشتهر بالعلم والعمل والنشاط وكثرة المذاكرة فكان الأول في كل سنى تعليمه الثانوي والمقدم على جميع أقرانه وإخوانه، ينتهي العام فإذا به الأول، ويمتحن في

الاحتفالات فيكون الأول، ويختبر في الإلقاء والمحاورات الأدبية فيكون الأول حتى صار زهرة في حدائق المعارف وشمسًا في سماء المدارس، يعرفه الكل، أو يسمع باسمه الكل وكانت دروسه لا تشغله عن الافتكار بعزيزة وتذكر ماضي طفوليته معها وكان يحادثها كثيرًا عن ذلك الزمن الذهبي الذي قضياه في اللعب والمزاح، قال لها مرة: أني أتذكر الماضي يا عزيزة فأتمنى عود الطفولية ثانية لأكون معك دائمًا.

قالت : لك يا أخي أن تذكر الطفولية ولكن لا أسمح لك أن تتمنى عودها، نعم، إني كنت سعيدة فيها بقربك وكان لنا دواعي مسرات كثيرة تركناها الآن لاشتغالك أنت بالدروس وإقبالي أنا على تعليم واجباتي الداخلية ولكن يكفي أن نتقابل هكذا كل مساء ونرضى بهذه الحال، وسكتت هنا خجلًا.

قال مصطفى وقد فهم سبب سكوتها وداعي خجلها، وقد تناولته الأفكار:: إني لا أريد التقهقر يا حبيبتي والرجوع إلى طفولية الجهل ولكنهُ فكر يلازمني فآنس من نفس أنسابه وارتياحًا له، وما سبب ذلك إلا تنعم الذهن بمراجعة الماضي الجميل وتشخيص الطفولية المحبوبة، أنا يا عزيزة لا أحس أن أشافهك بما في قلبي نحوك، وما في فؤادي من حبك، فأنت أكبر مني سنًا تقدرين على فهم معنى خفقان قلبي حينما أراك، ثم سكت مصطفى ولم تجبه عزيزة، ووقف الاثنان برهة صامتين ينظر كل منهما إلى الآخر والدموع ترقرق في أعينهما، وملائكة المحبة ترفرف فوق رأسيهما، ثم انصرف كل منهما إلى منزله دون تسليم ولا تحية.

❖❖❖

ماذا حصل بين عزيزة وحبيبها حتى افترقا دون تحية أو سلام، جدّ عليهما أنهما قد كبرا وعرفا أحوال الدنيا والعيش والحياة، فلما شافها بعضهما بما في القلبين من

حب وغرام حصل لهما ما يحصل للمحبين وما ينتاب العاشقين من الدهشة والحياء وهي سنة أهل الغرام.

عرف مصطفى الحب وعرف نفسه عاشقًا فلما شافه حبيبته بحبه ورأى سكوتها وخجلها ثم انصرافها صامتة اعترته المخاوف وتولاه الاضطراب.

سأل نفسه مرارًا وكرر على نفسه كلماته الأخيرة لها: «أنت أكبر مني سنًا تقدرين على فهم معنى خفقان قلبي حيثما أراك»، فعرف أنها فهمت مراده وأنه يعني بكلامه أنه يحبها لأن خفقان القلب عند رؤية الحبيب من دواعي الحب، ولكنه لم يعرف لماذا سكتت، ولا ماذا تقول الآن.

عشق وكان ما كان فلا يقدر الآن على ردّ جماح قلبه وكيف يقدر وقد فطر على حبها وتغذى به مع الرضاع وشبّ عليه.

كان عشقه لعزيزة ثابت الأركان في قلبه موطد الدعائم في فؤاده، سرى مع الدم في شرايينه وجرى مع الحياة في جسمه، فماذا يصيبه لو جفته الآن أو تباعدت عنه بعد أن باح لها بغرامه؟

عاد إلى منزله بعد انفصاله عنها ملتهب الفؤاد يحبها، ولكنهُ كان كثير الشك في حبها له لأنها لم تجبه على سؤاله، ولم يظهر على محياها دليل على الغرام.

تشتت أفكاره واظلمت ذاكرته وزاغ بصره واختلط عليه أمره فلم يعد يستطيع مطالعة الدروس كعادته، ولم يجد له قابلية على تناول العشاء، فقصد فراشه وحاول أن ينام.

قضى الليل ساهرًا وقد هجره النعاس، فصار يراجع الماضي ويكرر كلام عزيزة معه ويفكر بأحاديثها ويتذكر ألغازها ويتصور وضع يدها على كتفه وتطويقه عنقها

بذراعه ويشخص محاسنها أمام عينيه ويمثل جمالها لناظريه فيتأوه شجنًا ويزفر لوعة وهكذا حتى هطل الدمع من مقلتيه.

❖❖❖

تشابه الشمس والحب

إذا وقع شعاع الشمس على بلّورة انعكس عنها منحلًا إلى ألوان الطيف الشمسي السبعة كما ترى في قوس قزح، كذا الحب إذا وقع شعاعه على قلب انعكس عنه منحلًا إلى عدة مزايا بشريّة كالشمم وطلاب العلا والإقدام إلى غير ذلك مما يتجسم من صفات المتولهين (*) هذا رأي كاتب أديب ظنّ أنه مطابق للواقع فحكم به وأطلقه حكمًا أبديًا وأثرًا خالدًا واعتقاده فيه طبعًا أنه لا يقبل النقض ولا الإبرام وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تحرير من أديب أريب.

ولكني أقول: إنه قد يخطئ وأن خطأه أكثر من إصابته، يصيب مع النبيل فيصدق فيه تمامًا كما صدق في بطل روايتنا هذه مصطفى كامل ويخطئ مع غيره إذ يحبب له ترك أعماله كي يتفرغ للتلذذ بمجالسة حبيبه فتفوته الفوائد وتذهب من يده فرص الجلد والعمل فتنقلب حاله إلى أسوأ حال وتضيق الدنيا في عينيه ويأس من الحياة فينتحر وهكذا يكون الحب سبب وقوعه في الدناءة والجبن والقنوط من قوة الذات.

ولكم سمعنا وشاهدنا أشخاصًا انتحروا وقضوا على أنفسهم بالموت من يدهم وإذا حققنا أمرهم علمنا أنهم محبون قد وقع شعاع الحب على قلوبهم فأضرم فيها نارًا محرقة على منها فأطاش أحلامهم وأذاب عقولهم حتى لم يبق لها من أثر ففعلوا أفعال المجانين وهم لا يمتازون عنهم بشيء.

(*) نقولا أفندي حداد.

أما مصطفى فكان من القدم نبيل الطبع عالي الهمة فانعكس شعاع الحب عن قلبه منحلا إلى زيادة في الشمم وقوة في إرادة طلب العلا وشدة في الشجاعة والإقدام.

كان غريبًا في طباعه عجيبًا في أخلاقه ، نادرًا في همته ، فازداد الحب همة وعظم به قوة فكان الحب أمامه كنور الرقى فأخذ يحاول الصعود إليه مستنيرًا به.

جعل الحب من ذلك التاريخ رائده ودليله ومرشده وأمامه، فإذا انقطع عن المطالعة يفتكر بحب عزيزة فيتقوى وإذا قصر عن مداومة الجد تذكر عزيزة فعاد إلى الجد، جعل صورتها أمام عينيه وتمثلها في درسه ومذاكرته وامتحانه ، فكان قلبه يقوى وتأكله الحمية فلا يخيب له قصد ويفوز بأكثر مما يؤمل.

***

لم يحاول مرة واحدة نزع الحب من فؤاده ، بل كان يدفع نفسه إلى كل ما يثبت أصوله في أعماق قلبه ويوطد دعائم قوامه.

وضع الحب ويه تربى، وعليه شب ، وبيده اندفع إلى تيار العمل بجد واجتهاد حتى أنه لو لم يكن عاشقا لما ارتفع كل هذا الارتفاع على أقرانه في المدرسة ولو أنه كان من طبعه شعلة ذكاء.

في صباح اليوم الذي كاشف عزيزة بحبه وقضى ليله قلقًا بكر كعادته ونزل من المنزل، ولم يكد يفتح بابه حتى فاجأه نور محيا عزيزته واقفا على باب منزلها في انتظاره فاهتز قلبه في صدره اهتزاز العصفور بلّله القطر وجلّل وجهه اصفرار خفيف وسرت الرعدة في عروقه.

صار مصطفى رجلًا وعرف الدنيا فعرف الحب وأحب عزيزة بكل معنى الحب من سويداء قلبه وصميم فؤاده فلا غرو أن اعتراه ما يعترى العاشقين من الاضطراب والاصفرار ساعة الملتقى.

وكانت عزيزة أكبر منه سنًا إلا أنها أقل مدارك ولكنها في المدة الأخيرة بفضل مصطفى ومخالطته لها احتكت أفكارها بأفكاره فانمحى عن ذهنها بعض الصدأ الذي كان يجلله، واستنارت من محاوراته الأدبية معها فانزاح عن عقلها ستار ظلام الجهل قليلًا وأصبحت تحس إحساس المتعلمات وتبدي أفكارًا عالية تنم عن ذكاء دفين ونباهة مستترة، فكانت حينما ترى مصطفى تشعر بما يشعر به من اختلاج القلب واضطراب المفاصل، فتعرف أنه يعشقها وأنها تهواه.

كان الحب الحقيقي بمعناه التام متواصل الأطراف بين فؤاديهما فكان كل منهما يحس بما يحس به الآخر ويشعر بشعوره، فكأنهما قلب واحد في جسمين، فلما قرب منها ألقاها تبتسم له فتشجع قليلًا وحياها تحية الصباح،

قالت: نعمت صباحًا أيها المصطفى.

قال: أنا بخير ما دمت أنت كذلك.

– ألا تزالين باخلة عليَّ بالجواب على سؤال أمس؟

– لست باخلة ولكن ألا ترى في وجهي جوابي الصريح؟ إني لأعهدك لا مصطفى نبيهًا، فهل لا تدلك نباهتك على ميلي لك وحبي إياك؟ أتكلم الآن معك بشجاعة أكسبنيها جنانك وعلمنيها عزمك وإقدامك.

فقال مصطفى وقد ترنح طربًا وابتهج فرحًا:

– تفديك روحي ونفسي يا عزيزة ، أدام الله لنا هذا الحب المتبادل، والآن وقد أزف وقت انصرافي للمدرسة فسأخبرك في المساء بما أعددته لك ولنفسي لأجل المستقبل فأستودعك الله.

ومضى العاشق الولهان والفرح يدفعه إلى الأمام تارة ويوقفه في الطريق تارة أخرى وطورًا يلفتهُ يمينًا وطورًا إلى الشمال.

***

آه . ما أجملك يا عزيزة ، قد نبت حبك في أعماق فؤادي فلو تحوّل قلبي من الشمال إلى اليمين لما حلت عن حبك، آه ما ألطفك يا عزيزتي ، إني أضرع إلى الله أن يحقق آمالي نحوك ونواياي لك.

وقضى يومهُ في فرح وانشراح يقيمانه ويقعدانه ، وأظهر في نفس اليوم ذكاء غريبًا ونشاطًا عجيبًا وجدًّا متواصلًا وعزمًا شديدًا ، كان حب عزيزة لمصطفى كمستودع الكهرباء يستمد منهُ القوة والنشاط والعزم والاجتهاد، كان حبهُ لها كالشمس يبعث إلى عقله نورًا فيضيء ذكاءً وإلى رأسه حارة فيشتعل نشاطًا، كان حبهُ لها كالقمر يرسل أشعتهُ النورانية إلى قلبه فينيره، كان حبهُ لها يحرك لسانه فينطلق بالحكمة والصواب، بل كان حبهُ لها سبب سعادته وفوزه وأصل كل ثباته ومواصلته الجد والاجتهاد، قضى يومه في المدرسة يفكر بعزيزته ويبني على حبها قصورًا في الهواء، ويحدث نفسهُ ويمنيها ، ويتخيل أنه نال بحبها الدنيا وما فيها.

وخرج من المدرسة مساءً ولم يقصد المنزل كعادته بل ذهب توًّا إلى حانوت يوسف أفندي ابن عم عزيزة فسلم عليه وحياه فقابله هذا بالتجلة والاحترام لما كان له من المقام العالي في العيون والإجلال في القلوب ولما كان يعرفه عنه من الصفات الأدبية الحميدة والإخاء والوفاء ، وبعد أداء واجب التحية ، قال مصطفى:

– إني بارحت المدرسة حالًا ورأيت أن أغير عادتي في الذهاب توًا إلى المنزل وأن أريض النفس قليلًا فلم أجد أفضل من الجلوس عندك والائتناس بمحادثتك لما أعلمه من عزيزة عنك وكثرة مدحها في همتك وسمو مداركك.

– لقد أخجلتني يا مصطفى ولئن كنت على شيء فما أنا إلا أمثولة لك أو نقطة من بحرك ، نعم بيتنا من القدم أصل العلم والتقوى، ولكن العائلة فنيت ومات رجالها ولم يبقَ منها إلا النساء والأطفال وبعض الرجال الذين لا يكاد يعد الألف منهم بواحد وأنا منهم.

– ما هذا الكلام يا أخي، أنت من خيار الناس ، وأنا لا أسمح لك أن تتوهم في نفسك الصغار والضعف ، أنت كما سمعت عنك وشاهدته منك في بعض الأحيان عظيم وعالم جليل فلا يليق أن تنسى نفسك إلى هذه الدرجة ، بل اعرف نفسك يعرفك الناس ، وعظم نفسك يعظمك الناس وشرفها يشرفك الناس، وما النفس إلا حيث يضعها الإنسان.

وما النفس إلا حيث ينزلها الفتى وأني لها فوق السماكين واضع

قلت: إن أهلك من القدم أهل علم وتقوى وأنا عرفت ذلك عنهم وسمعت شيئًا من أخبارهم وسيرتهم ، ولقد أخبرني المعلم إبراهيم ابن خالتك أن جدك كان عالمًا كبيرًا وفيلسوفًا عظيمًا، وأن جده كان كذلك، وأن ما ناله رجالكم من العزّ والسؤدد كان عظيمًا تفتخر به عائلتكم على مر الأيام.

– نعم يا مصطفى نعم ، ولقد كانت دارنا بهجة الدور ومحط الرجال والعظماء ، فكانت على الدوام غاصة بالكبراء والأدباء والطلاب والمتعلمين الذين يقصدونها للاغتراف من بحر أهلها والارتشاف من منهلهم العذب ، ولكن أبى الدهر إلا أن يندثر كل ذلك ، وأصبح البيت يغلق بابه قبل المساء ويندر أن يفتح نهارًا لغير واحد من أهله.

– هذه يا يوسف أفندي سنة العمران فيوم لك ويوم عليك، وقد قال الله عز وجل في كتابه الشريف ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، فلا يحزنك ما قد حصل، وليكن لك فيك وفي صالح ابن أخيك خير تعزية، إني أرى فيك وفي بعض أفراد أهلك شيئًا من الصفات العالية والهمة، ولا جرم أن العرق دساس وأنكم لا ريب نسل أولئك العلماء العظماء ، وأنه سيأتي يوم تقبضون فيه على زمام العظمة كما كنتم.

– أشكرك يا مصطفى أفندي من كل قلبي على هذه المجاملة الحسنة وأهنئك أيضًا بما تظهره من الجد والنشاط اللذين أكسباك أعطر الذكر بين أقرانك واللذين كانا سببًا في تنشيط الآباء واستفزاز عزائمهم لإرسال أولادهم إلى المدارس ، أسأل الله أن يزيدك رفعة.

فشكره مصطفى وحياه وانصرف إلى منزله فإذا بعزيزة تنتظره على الباب فلتقتهُ بالترحيب وسألتهُ بلهفة عن سبب غيابه على غير عادة.

❖❖❖

أجاب مصطفى أني كنت مع يوسف ابن عمك .

– عجبًا ولماذا؟

– أردت أن أصرف وقتًا بعيدًا عن المنزل رياضة لذهني، فذهبت إلى حانوته وقطعت الوقت معه في حديث عن بعض الشؤون ثم انصرفت إلى هنا.

– وهل نسيت أني بانتظارك كعادتي؟ أو رأيت أنك قد كبرت فأردت التشبه بالرجال في الجلوس على أبواب الحوانيت والقهاوي، إن المعلم صالحًا ويوسف وأغلب أقاربي وأهلي وجيراننا جميعًا يقطعون أوقاتهم في لعب الطاولة (النرد)

والضومنو على القهوة ولا يعودون إلا ليلا ، فهل أصبحت يا مصطفى مثلهم ؟ إني أعيذك يا حبيبي أن تكون غرًّا وتتنازل إلى هذا الحد ، إنك قد برهنت كل تلك السنين لعارفيك أنك على غير خطتهم ، وأنك تشرع لهم شرعًا جديدًا فهل خانك عزمك وتغلبت عليك طباعهم وعاداتهم ففعلت ما يفعلون؟

– ما هذا الحديث يا عزيزة ؟ هل يفهم من عبارتي كل هذا المعنى ؟ هل مجرد ذهابي مرة واحدة إلى حانوت للاستفهام عن بعض الشؤون يجر كل هذه الأفكار إلى ذهنك؟ إني أنا أعيذك أن تظني بحبيبك السوء وأن تقعي في الإثم ، إن بعض الظن إثم ، ومعاذ الله أن أنسى انتظارك لي كعادتك أو يغيب عن ناظريك شخصك أو أترك محبتك .

وهنا اغرورقت عيناه بدموع التأثر ، فدلت على شدة المحبة والإخلاص .

كانت دموعه تترقرق متلألئة كالمرآة فرأت عزيزة فيها صورة قلبه ورأت صورتها مرسومة على جدران ذلك القلب الظاهر فابتسمت له وانتعش فؤادها طيبت خاطره ببعض ألفاظ عذبة ، كانت بلسمًا تداوى به انكسار خاطره ، وانبسطت لها أسارير وجهه وافتر ثغره ابتسامًا ، ولما كان الليل قد أرخى سدولهُ هزَّ يدها بالسلام ، ومضى إلى منزله وكله أفكار وهواجس وآمال ومطامع.

وكان أهله قد قلقل بالهم عليه فأرسلوا الخدم إلى منزل عزيزة للسؤال عنهُ فلما وصل لم يسألوه عن سبب غيابه لأنهم كانوا يهابونه ، ولأنهم كانوا لا يظنون الظنون ولا تأخذهم فيه الشكوك ولا يعلمون عنه إلا حبهُ الشريف الطاهر لعزيزة ذلك الحب الفطري الذي شب عليه ولا يمكنهم إرجاعه عنهُ ، ولا سألوه مرة واحدة أن يخفف منه أو يسلوه.

قضى ليلته تلك على خلاف عادته ، نعم ذاكر دروسه وافتكر بحبيته ولكنه عمل عملًا جديدًا بات لأجله مطمئنًا هادئ البال فنام نومًا عميقًا واستيقظ في الصباح مسرورًا.

قصد قبل المدرسة عزيزة ، وكانت ككل صباح تنتظره فحياها وحيته ثم قال:

– بنيت يا عزيزة الليلة الماضية مستقبلًا باهرًا لنفسي جعلتك أساسهُ فهل يسرك الاطلاع عليه؟

– كيف لا؟

– اسمحي لي يا عزيزة أن أتكلم بحرية ضميري ، أحببتك من صغري ، وثبت هذا الحب في كبري وكثيرًا ما افتكرت وناقشت نفسي وباحثت ضميري وأخيرًا حكم عقلي ونطق بالحكم فؤادي وتلاه لساني ، وكتبت نتيجتهُ أنامل آمالي وها هي اتركها عندك الآن ، وسأتلوها عليك في المساء ، والآن أقرئك السلام، ومضى إلى مدرسته.

فأخذت عزيزة الكتاب ، وأخفتهُ بين ثيابها ، وقضت يومها تفكر في فحواه وتحوم بفكرها حول ما احتواه فلم تهتد إلى شيء ، ولم تستطع معرفة شيء ، فانتظرت إياب مصطفاها على أحر من الجمر، ولما انصرف مصطفى من المدرسة قصد منزل عزيزة فإذا هي في النافذة تنتظر قدومهُ فأشار إليها بالتحية فحيتهُ بحركة من يدها دلت على شدة سرورها برؤيته وابتهاجًا بقدومه فصعد وفي لحظة صار معها فتصافحا بالأيدي ، وجلس بجانبها أمام النافذة، وكان الفصل صيفًا وهي لابسة ثوبًا من الكتان الرقيق يظهر من خلاله بياض ذراعيها وصدرها الذي يعلوه عنق جميل اللون كأنها أسطوانة من فضة مشوبة بالذهب تأخذ بالأبصار ، فوقها وجه آية في التكوين تحيطهُ هالة حالكة السواد من شعر ناعم الملمس مسترسل على

ظهرها كأنه الليل في شدة الظلام ، وكان لها عينان سوداوان فوقعهما حاجبان كرمحين وبالإجمال كان الجمال العربي والرقة المصرية متمثلين في عزيزة تمام التمثيل فكانت أجمل جيرانها وأرقّ بنات جنسها بقطع النظر عن فقرها الطارئ وذلها الحادث فهي بنت الأكابر وسلالة الأماجد والعظماء كما قال ابن عمها يوسف وتحققهُ مصطفى من كثير من الرواة ولأن تاريخ بيت عزيزة كان معلومًا لدى الجميع إذ ذاك وأخبار أهلها وأعمالهم لا ينكرها إنسان.

وكان الحر شديدًا ومن تأثيره صعد دم عزيزة إلى وجهه فتمثل فيه اللون المصري الجميل الجذاب أحسن تمثيل فتحرك هوى مصطفى وزاد قبلهً هيامًا، فالتفت إليها وقبض على ذراعها وقال:

– لك الله ما أجملك يا عزيزة وما ألطفك ، أيّ قلب لا يسجد أمام هذا الهيكل العظيم ، بل أي فؤاد لا يدفع بنفسه إلى نار غرامك جنة أنا متيم بها.

– أنت تخجلني بهذا الإطراء في المدح يا مصطفى.

– لا أقول إلا حقًا ، ولا أحكي إلا ما هو معروف ومشهور ، إن قلبي يا عزيزة في نار محرقة من غرامك ولكنني متنعم بإحراقها له وأحس بحرارة لهيبها في فؤادي فأخنع لها ، ولكنني متنعم بإحراقها له وأحس بحرارة لهيبها في فؤادي فأخنع لها وأسكن كأنها لذة أو نعيم ، أحبيتك يا عزيزة من كل قلبي فلا أريد أن أبتعد عنك.

– إن اجتماعنا الدائم لا يتيسر يا مصطفى ، قالت هذا وأطرقت متلعثمة.

– كيف ذلك ؟ ماذا تقولين يا عزيزة؟

– آه يا مصطفى لا أدري ماذا أقول.

– تكلمي ولا تخشي أحدًا ولا تجرحي فؤادي بهذا السكوت وهذا الكتمان.

– إذا فاسمع ، إنني لست لك بل أنا ملك لسواك بمقتضى إرادة أهلي فهم سلموني لمن لا أحبه ولم تعد لهم مقدرة على إرجاعي وخلاصي منهُ.

– أعرف ذلك ولكن ثقي أنه ليس في استطاعة مخلوق أن ينتشلك من يدي ولكن أخبريني من هو ذلك الذي تجاسر على تنكيد عيشي ، هل هو من أهلك وأقاربك حتى يكون أحق بك مني؟ أنا عالم بأمره ولكني متكل على عزمي ومساعدتك ومؤازرة يوسف وصالح وبعض ذوي قرباك الذين أعهد فيهم الشجاعة والعزم ، فأخلصك منهُ وتكونين لي وحدي ولسوف ترين ، وهذا هو الأمر الذي جئت إليك من أجله ولو كنت تعرفين القراءة لقرأت كتابي الذي معك.

– كان ذلك وأنت صغير ، ولكنك قد عرفته فما هو من أهل بل هو أجنبي وأخشى أن أقول : إنه أجنبي الجنسية أيضًا ، ولا أعلم لماذا استسلموا له إلى هذا الحد ورضوا به زوجًا لي ، وأنت تدري أن البنت في قبضة أهلها كالمتاع يتصرفون فيها بمشيئتهم ، وليس لها أن تبدي رغبة في زوج أو ميلًا إلى شابٍّ، قالت ذلك وسقط الدمع من عينيها وغصت بريقها فانقطع كلامها وسكتت.

ولا تسل عن حزن مصطفى وشدة ألم الضربة التي أحس بها من جراء بكائها فلو نزلت الصواعق وأمطرت السماء نارًا لما كان لها من التأثير على فؤاده ، كتأثير تلك الدموع عليه، ووقعت دمعة على يده ، فأحس بها كأنها جذوة نار أحرقت يده فانذعر وصاح بعزيزة قائلًا:

– إني لا أحب البكاء وإني أمنعك أن تبكي أو تذرفي دمعة واحدة ، إن البكاء لا يكون إلا عند اليأس والضعف وما دمت بجانبك فلا يداخلك اليأس واتكلي بعد الله على عزمي وهمتي ونامي هذه الليلة براحة وطمأنينة وفي الصباح ترين، وطيب خاطرها وانطلق إلى منزله، وقد شعر بأنه أصبح ذا مشاكل وأفكار.

كان مصطفى يعرف أن أهل عزيزة وعدوا ذلك الأجنبي بالاقتران بها مبدئيًا أنه لحبه لها لا يمكنه التسليم بإرادتهم لاسيما ، وأنه يراها في نكد دائم من جراء ذلك، فأخذ يتودد إلى يوسف ابن عمها والمعلم إبراهيم وصالح ابن خالها حتى أسس له مكانة بينهم ووطد الصحبة والألفة معهم ، فصار عندهم الصديق المحبوب وعرفوه الصادق العزم والقول، العالي الهمة والفعل، وكثيرًا ما يكلفونه بقضاء بعض مهامهم والسعي في بعض شؤونهم، ولقد دربهم هو على المحاورات الأدبية وشجعهم على خوض بحار المجالس العلمية، فأحبوه من كل قلوبهم وأخلصوا له الود ، وكان في هذه الأثناء على وشك الانتهاء من مدة المدرسة الثانوية، وكان لا يزال حافظًا اسمهُ الشريف في الجد والعمل وتربيتهُ في أدوار التعليم، أي أنه كان لا يزال المقدَّم بين أقرانه ، وكان قد تدرب واختبر الأعمال وتعوّد اقتحام الأهوال فكان لأقل سبب يقابل ناظر المعارف نفسهُ ، ويدخل عليه بدون استئذان ويكلمهُ كما يكلم أحد أقرانه ويخاطبهُ باللسان الذي يخاطب به بعض أخوته ، وكانت شجاعته وثباته وعزمه وإقدامه وصفات الرجولية التي ظهرت عليه والشهامة التي التصقت به وجرأة الجنان وطلاقة الوجه وذلالة اللسان كل هذه الصفات العالية والمواهب السامية قد حببت فيه المرحوم علي مبارك باشا ناظر المعارف العمومية في ذلك الحين، فكان لا يغضب من مقابلته ولا يتأفف من الشدة التي كان يبديها في مخاطبته بل كان يسرّ وينشرح صدره، وكان في بعض الأحيان يتعمد إغضابه ليجرئه على الكلام ويشجعه في المخاطبة.

كان المرحوم علي مبارك باشا يحب مصطفى ويترنم في المجالس بوصف شجاعته وإقدامه.

قال له مصطفى مرة وهو ناظر المعارف العمومية في جلاله وجبروته أمام جمع من العظماء والكبراء بعد محاورة حماسية:

- «من يدريك أنني لا أكون يومًا ما عظيمًا وأخدم أمتي بأنفع مما تخدمها به أنت الآن»، فلم يأبه علي باشا مبارك لهذا الكلام أو يغضب بل ابتسم له وضحك متهللًا وقال له: «أرى أنك ستكون عظيمًا يا مصطفى فلا تنس حينئذٍ الفقراء».

وكان لهذه المقابلات صوت يرنّ في جوانب مصر، فتردد صداه جميع المجالس والمحافل، وتحدثت به النساء في الخدور حتى أصبح أكثر الناس يعرف مصطفى كامل أو يسمع بذكره ولا يراه.

وأتم الدراسة الثانوية وتقدم للامتحان، فكان رأس الفائزين وأول الناجحين وأعجب ببراعته الناس، وكان عمره إذ ذاك حوالي الخامسة عشرة فسبحان الوهاب.

❖❖❖

من ذلك الحين وجد مصطفى في نفسه عزمًا ومقدرة على إنقاذ عزيزة من يد ذلك الأجنبي المغتصب لها بدون حق ولا أهلية.

افتكر كثيرًا وتذكر أنه سمع في صغره مرارًا أن عزيزة ستكون له فكيف تذهب منه الآن؟ وكيف يعلم أهلها ذلك ويسمحون بها لغيره؟ إن فيكتور أجنبي الجنسية عنها، فكيف يطمع أن تكون عزيزة وهي مصرية عريقة في الوطنية عروسًا له؟ هل

أوصل الجبن أهلها إلى حد أنهم لا يفتكرون في أجنبيته ، ألا بعدًا لهم إنهم جاهلون، سوف يرى فيكتور مدافعتي عن عزيزة وإنقاذي لها من يده ، وسوف يعلم يوسف وصالح وسائر أهلها أنني متمسك بأنها لي وإني لها ، ألا فليهدأ بالك يا عزيزة فأنت لمصطفى إلى أبد الآبدين.

كان مصطفى صغير السن حينما طلب فيكتور يد عزيزة ونالها من أهلها ، ولكنه كبر الآن وأحبها ، وشعر بمعنى الحب وقوة العشق، فكيف يتعذب ببعدها ويدع فيكتور يتمتع بقربها؟

صمم النية ووطد العزم على الجهاد في هذا السبيل وهو من الذين إذا قالوا فعلوا، فصار من السهل أن تتحولّ الأهرام عن موضعها ولا يتحول مصطفى كامل عن عزمه.

شرع في العمل، فذهب أولًا إلى يوسف ابن عم عزيزة وفاجأه بعد التحية بقوله:

- كيف سمحتم لفيكتور بيد عزيزة؟

- عجبًا ولماذا هذا السؤال؟

- أريد معرفة السبب أولًا ثم أخبرك لماذا؟

- حسنًا. اعلم يا أخي أنه لما توفى والدا عزيزة وكان يلزمها طبعًا عناية ومراعاة ومصاريف، وغير ذلك من لوازم التربية ، وكنا كما تعلم فقراء اضطرب أمرها وساءت حالها كثيرًا، هذا قطع النظر عن انصلاح أمرها في الوقت الحاضر بعنايتك ورعايتك ، وما تبذله لها من النقود التي تحرم نفسك منها لأجلها، فلما طلبها فيكتور بذلاقة لسان وحسن سياسة وسلامة نية أجبناه إلى طلبه عن طيب خاطر طمعًا بماله وثروته وحبًا في تحسين حال عزيزة وهنائها بهذا المال الوفير والغنى الواسع .

- ولماذا لم تسألوا عنه وتستقصوا عن أخباره قبل أن تجيبوه إلى طلبه؟

- إن فيكتور عظيم لا يحتاج اسمه إلى تعريف ولا سؤال .

- وهل رضيت عزيزة به؟

- نحن رضينا وقضي الأمر ، وليس للبنت إلا التسليم بأمر أهلها والإذعان لإرادتهم.

- لقد جنيتم يا يوسف جناية لا تقبل الغفران وسوف أبين لك وجه الغلط وسوء المصير، إنكم استسلمتم استسلام العميان لقائدهم فلا يدرون إلى أي طريق هم مسوقون ، وسآتيك صباحًا بالبرهان والسلام عليك الآن.

***

بعد انصراف مصطفى دخل رجل على يوسف فسلم عليه وحياه بالتجلة والإعظام ، فرد يوسف التحية بأحسن منها ، ونظر إلى وجهه فلم يتذكر أنه يعرفه أو سبقت له رؤيته ولكنه ككل مصري يحسن ملاقاة الضيف ويكرم مثواه ، قدم له كرسيًا ، وطلب له القهوة، وصار يلقى عليه تحية بعد أخرى ، ثم دارت بينهما المحادثة الآتية، قال يوسف:

- هل أتشرف بمعرفة حضرتكم؟

- محسوبكم مقار ، أرسلني فيكتور لمقابلة حضرتكم.

- أهلًا وسهلًا ومرحبًا ، وكيف حال جنابه؟

– بخير يهديكم السلام ويخبركم بأنه في كل مقابلاته الأخيرة لخطيبته عزيزة كان يراها نافرة منه غير متوددة إليه وذلك بخلاف ما كان يعهده فيها في الماضي فقاطعه يوسف قائلًا:

– إنها كانت صغيرة لا تتهيب من شيء، وأما الآن فقد صار نفورها أمرًا طبيعيًا لأنها كبرت وأدركت معنى الخطوبة والنفور عادة الأبكار.

– إن ما تقوله حضرتكم حقيقة لا ريب فيها ولم يكن فيكتور ليهتم بالأمر لو لم يتحقق أن نفورها كان لغير السبب الذي أظهرته حضرتكم.

– أرجوك الإفصاح إذا.

– تحقق فيكتور أنها لا تحبه وغير راضية به.

فقال له يوسف بحدة:

– ليس لها أن تحب أو تكره ما دمنا نحن راضيين.

– نحن نعرف ذلك ومتكلون على وعدكم لنا، ولكن الذي أخافنا هو الذي حدث جديدًا.

فقاطعه يوسف أيضًا:

– قلت لحضرتكم يا معلم مقار أنه قلما يهمنا في مصر رضا البنات في هذا الشأن ومع ذلك فإن النفور طبيعة الأبكار.

– فهمنا ذاك ولكن أرجوك الإصغاء قليلًا وإن لا تقاطعني حتى أتم لك الحديث.

– تفضل.

– تعلم حضرتكم أن فيكتور لم يطلب يد عزيزة طمعًا في جمالها فقط ، بل لأنه يعلم سابق عز أهلها وطيب عنصرهم وكرم أصلهم ، فلما رأى ما هي عليه من الجمال وما هي فيه من اضطراب الحال وتعس المآل طلبها منكم شفقة بها وحبًا في إصلاح حالها ، فأنعمتم بها وها أنتم الآن ترون ما يبذله في نعيمها وتحسين أمرها، فلم يكن ليتظر منها النفور، تقول حضرتكم : إن النفور عادة الأبكار ، ولكن ما جوابكم إن قلت لكم : إنه مقصود منها وأنها تفعله بتحريض وبناء على إرشاد وإغراء؟

– إنك واهم يا معلم مقار.

– بل هي الحقيقة يا يوسف أفندي.

– وكيف ذلك.

– إنها تميل لشاب في حارتكم اسمه مصطفى كامل وهو يعشقها ويحرضها على العصيان.

– يا للعجب أيجسر هذا الصغير أن يقدم على هذا الأمر ، الآن فهمت القصة ولا حاجة إلى بيان، فأرجوك تهدئة خاطر فيكتور إلى أن أقابله في هذا المساء ، وليكن براحة بال ، فعزيزة جاريته ونحن خدامه وبلغه عني السلام، فشكره المعلم مقار شكرًا جزيلًا، وأوصاه بفحص الأمر بحكمة وروية ووعده بمقابلة فيكتور في المساء.

أخذ يوسف بعد انصراف المعلم مقار يفتكر في مقاله ويستعظم الخبر ويرتجف خوفًا من غضب فيكتور عليه .

إن يوسف ابن عم عزيزة هو الذي وعد فيكتور بها وسلمه يدها على مرأى من بعض أهلها وأقاربها ، فكيف يطمع الآن في رضاه عليه مع علمه بما فعله مصطفى؟

كان كل خوف يوسف أن يعلم فيكتور أنه يعرف مصطفى ويعلم بأفعاله وكان يوسف قد مال قليلًا نحو مصطفى ولكن الآن ذهبت شجاعته وصار يمقته ولا يحب أن يراه.

كان فيكتور يخلب عقل يوسف وغالب وإبراهيم وبعض أهل عزيزة بما يبذله لهم من الأصفر الرنان وما يعدهم بنيله من الأماني الغالية ، فضلًا عما اشتهر به عندهم من قوته وشجاعته وشدة بطشه، لذلك كانوا يحبونه ويجلونه ويخافونه ، فماذا يفعلون بمصطفى ليرضوا فيكتور ويبعدوا ظنونه السيئة عنهم؟

كان مصطفى صغيرًا لا ينتفعون منه كما ينتفعون من فيكتور ، وقد كان لا حول له ولا قوة على مناظرة فيكتور العظيم الشأن ، فسهل على يوسف الأمر بتصوره ذلك، وصمم نيته على مجافاة مصطفى وإبعاده ما استطاع عن عزيزة وتبغضيها فيه بكل ما يمكنه من الحيل.

وبينما كان يوسف مضطرب الفكر شديد الحيرة في الأمر ، جاء إليه إبراهيم وعلائم الغضب تلوح في وجهه ، فلم يلق تحية ولا سلامًا ، بل بدأ بقوله:

– هل أعجبتك جرأة مصطفى علينا يا يوسف؟

– حقًا لا أدري ما العمل يا إبراهيم ، وهل بلغك أنت شيء عنه؟

– جاء إليَّ الآن المعلم مقار من قبيل فيكتور وأبلغني استياءه من نفور عزيزة منه بناء على تحريض مصطفى ، ولقد أهاج المعلم مقار عواطفي بكلامه حتى استفزني الكدر إلى الحضور إليك.

– عجبًا وما قصده من هذه المقابلات ، فإنه كان عندي هذه الساعة، وأبلغني إبعاد مصطفى عن عزيزة بكل الوسائل الممكنة ، مع العلم بأنه جريء وجسور وليس من السهل إبعاده، فما العمل يا أخي؟

– أراك معجبًا به يا يوسف ، وإني لأعجب من إكبارك لمصطفى إلى هذا القدر ، هل يصعب علينا جميعًا مع فيكتور والمعلم مقار ومساعديها أن نمنع مصطفى الصغير الذي لا يزال في أحضان المدرسة ونبعده عن عزيزة ؟

– أنت لا تعرف مصطفى وعزمه يا إبراهيم.

– بالله دعني من كلامك يا يوسف ، ما هذا الخوف ؟ أليس صادق ابن أخيك مع مصطفى في المدرسة ورفيقه في الدرس فلماذا لا نتخوف منه كما نتخوف من ذاك؟ بل لماذا تختلف أفكار صادق عن أفكار مصطفى ؟ بل لماذا هما خصمان عظيمان؟

والنتيجة أن تأمر عزيزة بعدم مقابلة مصطفى قطعيًا وتحظر عليه أن يخاطبها وحينئذ نكون قد أبعدنا بين قلبيهما فلا يجدان سبيلًا إلى المحبة أن كان لها وجود كما يظن فيكتور.

– ولكنك تعلم أن أهل مصطفى وإخوانه ينصرون له ضدنا ونحن لا نودّ إغضابهم لأننا جيران وأهل.

– لا يهمنا غضبهم يا أخي وقد جاء في المثل العامي: «إذا جاءك الطوفان فضع ولدك تحت رجليك» .

– لا بأس، وفي المساء نذهب معًا لمقابلة فيكتور ونفهمه أن الأمر الذي يخشاه لا أهمية له على الإطلاق وقد لا يكون له وجوه بالمرة.

- سأجيء إليك في الميعاد، قال ذلك وانصرف.

❊❊❊

في عصر هذا اليوم اجتمع المعلم مقار وصديقه الخواجا صيرفي وفيكتور بمنزل الأخير بشارع ..... ودار بينهم الحديث الآتي:

مقار: ذهبت إلى يوسف أفندي وأبلغتهُ الرسالة وهوّلت عليه الأمر ولم أتركه حتى رأيتهُ يكاد يختنق غيظًا من مصطفى، وكذلك فعلت مع المعلم إبراهيم وغالب أيضًا.

فيكتور: أحسنت كثيرًا.

صيرفي: إنني وصديقي الخواجة نمروذ في غاية العجب من هذا الاهتمام الزائد والخوف العظيم من شاب لا يزال في المدرسة يهاب مقابلة الرجال فضلًا عن الوقوف في تيارهم والتصدي لمعاندتهم، إنكم بعملكم هذا تجرئونه عليكم وتطمعونه فيكم.

مقار: يظهر إنك لا تعرف الشاب يا معلم صيرفي، إنه شاب خارق للعادة تريد تكسير شوكته قبل أن تعظم وإطفاء ناره قبل أن تضطرم.

فيكتور: نعم هو ما يقول يا معلم صيرفي.

فابتسم الأخير دلالة على عدم التصديق وهزّ كتفيه ببطء وقال: عليَّ عدم التصديق وهزّ كتفيه ببطء وقال: عليَّ أن أقوم بما عهدتما إليَّ به وألّا أدخر جهدًا في تنفيذه وعليكما إحراز ثقة سائر أهل الفتاة بكما.

- هونّ عليك فليس لدينا أسهل من ذلك، والذي يُظهر بعض الخنق والمعرفة فالدينار يسكته والوعود الذهبية تقصره وإنما الخوف من الشاب وأقرانه.

صيرفي : عليكما أن تبذرا بذور الحسد بين أقرانه وهي وحدها تنبت البغضاء وتثمر التفريق بينه وبينهم وتكفينا شره.

المعلم مقار: خطر لنا هذا الفكر وقد أعددنا له المعدات.

صيرفي: حسنًا فها أنا الآن منصرف.

وقبل انصرافه دخل الخادم وناول فيكتور بطاقة زيارة ، فلما قرأها رمى بها إلى المعلم مقار، فقرأها أيضًا ، ثم ناولها إلى المعلم صيرفي ، الذي قال بعد تلاوتها:

– يجب أن أنصرف قبل دخول يوسف وغالب لئلا يخامرهما الظن في اجتماعنا هذا.

ثم نظر إلى فيكتور نظرة المستفهم، فقال له:

– هو ما ترى فاخرج من هذا الباب إلى الدهليز الداخلي ، ثم افتح الباب السري بالمفتاح الذي أعطيتك إياه واخرج إلى الشارع فلا يراك أحد.

***

علم القارئ مما تقدم أن فيكتور شعر بأمر مصطفى ، وحسب له حسابًا كبيرًا ، مع أن مصطفى كان لا يزال تلميذًا بمدرسة الحقوق.

كان له أن يخاف وينظر إلى مستقبل هذا الشاب بعين الحذر خوفًا منه على خطيبته عزيزة؛ لأن مصطفى من يوم دخوله إلى مدرسة الحقوق أجهد نفسه كل الجهد وأظهر نور ذكاء ساطع بهر الأفكار وخلب الأبصار.

كان شعلة نشاط تضطرم اضطرامًا تدهش الرائي وتحير الناظر ، كان أعجوبة النباهة والفطنة في مدرستي الحقوق الخديوية والفرنسوية لم يتخلف سنة في أحد

فصولها، ولم يلاحظ عليه أحد أنه تأخر يومًا واحدًا عن الذهاب إليها، ولم يعبهُ أحد بعدم حفظ دروسه فيها.

ألف كتابه «أعجب ما الذي كان في الرق عند الرومان» و«حياة الأمم»، وروايته «الأندلس»، فأظهر من قلمه في هذه المؤلفات علمًا واسعًا واطلاعًا كبيرًا، وبلاغة عظيمة، وأسلوبًا في التأليف غريبًا.

وأصدر أيضًا مجلة المدرسة، فحازت القبول الزائد لدى كل طبقات سكان مصر، وأعجبت بها نظارة المعارف العمومية المصرية، فاشتركت فيها بخمسين نسخة.

كانت المجلة ميدانًا له فسيحًا، أظهر فيه وطنية صادقة، وصرخ بلسانها صرخة جديدة ألفتت إليه المصريين، وكانوا أشتاتًا، فتجمعوا حوله ينصتون، فأعجبتهم النغمة، وأطربهم الصوت، وكان دور الغناء جديدًا لم يتعودوا سماعه، فأشجاهم وقعه على مسامعهم وقلوبهم فأحبوه، وطلبوا إعادته مرارًا وهو لا يكلّ من الإعادة ولا يضجر من التكرار.

أهل المودة والسنن ... هيا لكي نعلي الوطن
ونعيد مجدًا قد دفن ... ونفوز بالنصر المبين
فالحرُّ لا يرضى المقام ... بمكانة فيها يضام
والذلّ تأباه الكرام ... والعز للعليا رهين

فكيف لا يتخوف فيكتور ولا يتهيب، كيف لا يحذر ولا ينظر بعين الخوف إلى هذه الجذوة التي تضطرم أو كيف لا يحسب لها حسابًا كبيرًا؟

كان فيكتور ممن يحسبون لكل صغيرة وكبيرة حسابًا ويفحصون بكل دقة وإمعان كل ما يقع تحت أنظارهم، فكان بعيد النظر في الأمور، فلما رأى مصطفى

واستعداده الفطري العظيم وقوته العجيبة ونبوغه بين إخوانه ، وظهوره فيهم بهذا المظهر الغريب ، والتفافهم حوله، وحبهم له، تخوف منه ، خصوصًا لما يعلمه عنه من حبه الفطري لخطيبته عزيزة ، وعشقه لها، وكلفهُ بها ، وزاد خوفه حينما تحقق تحريضه لها على النفور منه، وعصيان أهلها، فأرسل المعلم مقار إلى يوسف كما علمنا.

***

علم مصطفى بما تحدث به القوم عنهُ وباهتمام فيكتور بأمره، وتخوفه منه ، فلم يعبأ ولم يحذر.

قال لنفسه يومًا: «لقد صرت يا مصطفى مرمى الأنظار، وصار الرجال يهابون مستقبلك، ويحذرون من قابل أيامك ، أحببت يا مصطفى فتاة في حداثة سنك ، فلما كبر ألفيتها في قبضة غيرك ، وهذا الغير شديد البأس عظيم الاسم يهابه العظماء، ولكن حبيبتك غير راضية به، ولا يمكنه تسليمها إليه وإلا سقطت من عينيها واعتبرتك ضعيفًا وكنت في نظر نفسك وأهلك صغيرًا أو جبانًا».

كان مصطفى بين نيران متعددة، يخاف غضب عزيزة عليه، وظنها فيه الضعف ثم هو من نفسه لا يطيق فراقها ، ولا يمكنهُ الصبر على بعدها، فكيف يقدر على تركها لفيكتور، ثم هو أيضًا لا يطيق احتمال إهانة من أحد ومزاحمة فيكتور له على أليفة صباه، وانتشالها من يده إهانة عظمى لا تتحملها نفسه ، وهو أيضًا إذا شرع في عمل لابد أن يتممه فكيف لا يخلص عزيزة من خطبة فيكتور ، وقد شرع في العمل، ووعدها بأتمامه، وهو من الذين إذا قالوا: فعلوا، وقد قال: إن عزيزة لن تكون لفيكتور، فكيف لا يعمل على تحقيق ما قال.

كانت هذه العوامل وغيرها ألسنة حادة تحضهُ على العمل وتدفعهُ إلى الأمام وتضطره إلى تحقيق أقواله وتنفيذ وعوده وكان أشدها دفعًا عشقه لعزيزة، وكلفه بها، فصار من ذلك الحين يستهلك في سبيل الوفاء بوعده، ويبذل كل مرتخص وغالٍ لتنفيذ أماله وأمانيه، فاختطّ لنفسه خطة ووطد عزمه على السير فيها، فرأى من اللازم أن يقابل عزيزة أولًا، ويبث إليها بعض أفكاره، ويكاشفها بما عزم على عمله لتكون عالمة بنواياه، ومطلعة على أفعاله، فقصد إلى منزلها، فإذا هي في النافذة بانتظاره والقلق ظاهر عليها، والاضطراب واضح من إشارتها.

كريشة في مهب الريح طائرة　　لا تستقرُّ على حال من القلق

فلما أبصرته بادرته بإشارة التحية وابتسمت له ابتسام العاشق الولهان، فقابلها بالمثل، وأظهر لها أنه يريد مقابلتها فأشارت إليه أن ينتظر قليلًا ثم أسرعت إلى مقابلته ففتحت باب المنزل، ومدت يدها إليه فتصافحا بشوق لا مزيد عليه، ثم جذبته بلطف إلى الداخل، وأوصدت الباب وقالت:

– ماذا أرى ما مصطفى، إن القوم يأتمرون بك ليبعدوك، ولا أرى لذلك سببًا واضحًا.

– وهل من سبب أكبر من جهري بمحبتك يا عزيزة؟

– آه يا مصطفى، ليتني لم أعرفك، إني سببت لك الشقاء.

– لا ترجعي إلي النغمة الماضية ألم أقل لك ألا تفتكري في شقائي، هل تعدُّ محبتي لحياتي؟ أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا عزيزة، فكيف لا أحب حياتي؟ ثقي إنني سعيد جدًا بهذا الحب، لم أحبك باختياري يا عزيزة، ولكن بالرغم عني من يرى هذا الجمال الباهر ولا يعشقه؟

– هل علمت ما قيل بشأنك؟

- عرفت كل شيء .

- وعلى ماذا عوّلت: إني أخاف عليك يا مصطفى فبالله دع الخونة يفعلون بي ما تزينه لهم الخيانة ، والله يقتص لي منهم بعدله ، واسترح أنت فإني أخاف عليك من بطشهم.

- اقصري بالله هذا الكلام فإني قد عزمت على الدفاع عنك ، والوقوف أمام كل جبار عنيد في سبيل إنقاذك من يد هذا المغتصب الظالم ، وأنه لتخرج روحي من جسمي ولا أرجع عن عزمي أبدًا ، إني بدأت في العمل ومن المحال أن أرجع قبل إتمامه، قلت : إنني أريد أنقذك ولابد أن أفعل.

- بورك فيك يا مصطفى ولا حرمني الله من شجاعتك وبأسك.

- هذا واجب إنساني وطبيعي أيضًا فلا أنتظر عليه أجرًا ولا شكرًا فاسمعي الآن ما عزمت على فعله.

تركنا يوسف أفندي وغالبًا على باب فيكتور يستأذنان بالدخول عليه، وتركنا المعلم صير في خارجًا من الدهليز الداخلي ، حيث يصل إلى الباب السري للمنزل ليخرج دون أن يراه أحد، وهكذا خرج وأمر فيكتور خادمه بإدخال المنتظرين فدخلا ، وسلما وجلسا ، وبعد أن شربا القهوة ، وناولهما المعلم مقار سيجارتين.

قال يوسف : أخبرنا اليوم المعلم مقار عن استيائكم من نفور عزيزة.

فيكتور : نعم ، وأنا الذي أرسلته إليكم.

يوسف : ولكن تعلمون جنابكم أن لا داع للاستيلاء من نفور الفتيات.

مقار : هو كذلك يا يوسف أفندي لو لم يكن السبب الذي أخبرتك عنه.

يوسف : أنهُ أيضًا لا يخيف أبدًا.

غالب: وهل يخفينا شاب مثل مصطفى ويعارضنا في رغائبنا.

فيكتور: أنا لا أخافه وحده، ولكنني أعلم أنهُ سيتغلب يومًا ما على عقول بعض أقرانه وهم يؤثرونَ على أفكاركم فتنضموا إليه، ولا يخافكم إني الآن لا أستطيع التنازل عن عزيزة لأنها صارت في يدي، وحلت محلًا عاليًا من قلبي، قيل لكم يوم تنقضون عهدكم وويل لكم يوم تخونون.

غالب: ثق بنا كل الثقة فقد قررنا مصادرته وإبعاده عن عزيزة.

مقار: نعم الرأي ويجب عليكم من جهة أخرى أن تشددوا النكير على الفتاة وتحظروا عليها مقابلته.

فيكتور: لا، لا، الأوفق عدم ظهورنا أمامهم بمظهر العداء، ويمكننا فقط تنفيرها منهُ بوسائل عديدة كأن نفهمها أنهُ شاب مغرور بنفسه يجرها بغروره إلى مستقبل لا تحمد عقباه، وأنهُ لا حول له ولا حيلة، وأنهُ أضعف من أن يقف أمام رجل، وأن حبه لها لا يلبث أن يزول كما هو شأن كل شاب تستفز في أول أيامه نشوة الشباب، ثم من جهة أخرى أكون أنا عاملًا على عرقلة مساعيه وإحباط أعماله وآماله.

يوسف: إذًا لا نظهر له استياءنا منه وكرهنا له؟

فيكتور: هذا هو رأيي.

مقار: أنت مسالمٌ دائمًا يا فيكتور.

فيكتور: ليست هذه طريقة مسالمة يا معلم مقار، بل إنها حيلة أتبعها في سلم وفي حرب، فبينما نحن نسأله في حبه نحاربه في مستقبله، ونوقع بينه وبين أقرانه، وعندما يرى نفسه وحيدًا معدمًا يرجع على أعقابه وتكرهه عزيزة من نفسها شأن كل فتاة إذ تعلم أنه غشها وغرر بها.

غالب: إنها سياسة حسنة، ونحن من جهة أخرى نغري صادقًا ابن أخي فيساعدنا عليه، لأنه قرينه في المدرسة ويخالفهُ كثيرًا في أفكاره.

مقار: إنها طريقة حسنة وحبذا لو استملنا كثيرين من أمثال صادق.

فيكتور: هذا أمر سهل جدًا فاتكل على الحذق. والأصفر الرنان.

يوسف: إذا قد اتفقنا على ذلك.

فيكتور: نعم.

يوسف: هيا بنا يا غالب.

وسلما وانصرفا وظل مقار مع فيكتور يضحكان ضحكة الفائز ويهزّان رأسيهما استغرابًا من بساطة أهل عزيزة وجاههم، ثم قام مقار، فودع على أن يلتقيا وقت الحاجة.

بدأ مصطفى يقصّ على عزيزة ما عزم على فعله وما دبره للوصول إلى نجاتها من يد فيكتور فقال:

- اعلمي يا عزيزة أن أهلك هم الذين طوّحوا بك إلى هذه الهوّة العميقة لجهلهم وبساطتهم ودناءتهم وجبنهم فهم لجهلهم اغترّوا بفيكتور ولبساطتهم خدعتهم وعوده الكاذبة ولدناءتهم خلبتهم دنانيره اللامعة، ولجبنهم انهزموا أمام سطوته الوهمية فهم الآن قد دخلوا في وكره، وسقطوا في فخه، وتورطوا معهُ، واستحال عليهم الرجوع والإفلات من يده.

لهم أن يبقوا في قبضته، ويقدموا أنفسهم له، ولكن ليس لهم أن يتصرفوا في حرّية الغير أو يوقعوه معهم، ويقدموه لهُ بيدهم، ليس لهم أبدًا أن يتصرَّفوا بحريتك رغمًا عنك، ويقدمون دون رضاك لمن لا تحبينه.

مضى الزمن الذي كانت الفتاة فيه معدودة ضمن المتاع وأثاث المنازل تباع وتشترى كالكراسي والمفروشات دون معارض ولا ممانع وتقاد إلى الزوج دون أن يكون لها حق الاستشارة أو إبداء الرأي ، كما تقاد النعاج إلى المذابح ، هم رضوا به، ولكنك غير راضية به، فماذا يفعلون لو أعلنت عدم رضاك، يقول فيكتور وأنصاره: إننا في زمن الحرية الذي يحق فيه الجهر بالرأي ، فلماذا لا يعاملونك بحسب هذا القول ، إنهم إذا كاذبون.

إن الشرائع السماوية والقوانين الإنسانية لا تضغط على حرية الفتيات إلى هذا الحد، بل تعطيهنَّ حق إبداء الرأي في موضوع الخطبة والزواج منعًا لما يحصل في مستقبل الحياة الزوجية، فكيف يخالف أهلك الشرائع والقوانين؟

- لا يعدُّ ذنبًا تمسك الإنسان بحقه الممنوح له من الطبيعة وليس عارًا أن يقوم المظلوم إنني أشعر بالظلم والعسف، وليس كفرًا إن يقول الإنسان أن أمي ولدتني حرًّا ويريد الله أيضًا أن أكون حرًا فلا أرضى العبودية، بل العار على من يقول: إنه يحب الحرية ونصرة المظلوم ، ثم تدل أفعاله على غير أقواله، بل تبرهن أمياله على عكس كلامه بكل صراحة ووضوح.

يدعى فيكتور وأصحابه أنهم تربوا في أوروبا وتلقنوا الحرية أو المدنية وتعلموا تعليمًا عصريًا صحيحًا ، وصاروا فلاسفة ودكاترة وعلماء، وأنهم يعرفون معنى الحياة ولذة المعيشة ، ولكنهم وحقك يا عزيزة وأنه لقسم كما تعلمين عظيم يفعلون أفعالًا خبيثة تدل على لؤم شديد ودناءة كبيرة وحطة متناهية وجهل فاضح.

يقولون : إنهم أحرار وأنهم نصراء الإنسانية، ولكنهم يكرهون المظلوم إذ تألم ويسعون في استعباد الأحرار ، ولولا ذلك لما تألموا من جهرك بطلب الحرية ولا تغيظوا من ميلكِ لاختيار الزوج، يقولون : ليس من حق الفتيات اختيار الزوج، فهل الذين تعلموا العلم الحقيقي وتربوا على المبادئ القويمة يقولون ذلك؟

عرَف فيكتور أنني أعشقك وأنك تحبينني ولست راضيةً به، فهل يستمر على مصادرته هذه، ويضيق على حريتك إذا كان من أنصار الحرية والإنسانية.

كان مصطفى يتكلم بانفعال شديد وتأثر عظيم واستياء ظاهر حتى خشيت عزيزة أن يؤثر ذلك على صحته، فأظهرت الابتسام والانشراح، وأبدت عدم اكتراثها بأهله وبينت لحبيبها مصطفى شدة تمسكها به وعزمها على ألا تمكن أقاربها من الوفاء بوعدهم لفيكتور، فكان لكلامها تأثير حسن في قبله، فخمدت نار غيظه، وهدأت ثورة غضبه، وانبسطت أسارير وجهه، وقال لها:

– الآن يا عزيزة يلزمنا التحفظ ما أمكن، والاحتراس بكل ما يستطاع لأنني أعلم أنهم يدبرون التدابير، ويعدون المعدات لإبعادي عنك وتنفيرك مني، فتدبري كل ما يقال، واحرصي أن يؤثروا عليك.

– حاشا لله أن يؤثر عليّ قول أو يصادف كلامهم مني أذنًا سامعة.

– وقد رأيت أن أعلمك القراءة والكتابة حتى إذا تمكنوا من إبعادي عنك تكونين قادرة على الكتابة لي بكل ما تحتاجين إليه.

– يا له من فكر جميل لا أعدمك يا مصطفى، إن قلبي يتقطع كلما رأيت مثيلاتي من الجيران يقرأن ويكتبن، ولا أقدر على مجاراتهن أو التلفظ بينهن حينما يتلذذن بالمطالعة والمناقشة، فلو تم ما ارتأيته لي، وتعلمت على يديك وصرت قادرة على مناظرتهن يكون لك في عنقي طوق جميل لا أستطيع القيام بوفائه لك، ويكيفك أن أكون مدينة لك وأنت صاحب اليد الطولى عليّ والفضل العظيم.

– لا فضل ولا جميل، وإنما هو واجب أقوم به نحوك، وليكون أيضا سببًا لمبادلة الكلام بيننا حينما لا تمكننا الظروف من الاجتماع ولله المستقبل، فلا ندري ما هو مخبوء لنا طي أيامه ولياليه، والآن فأنا ذاهب لأعود صباحًا حيث نبتدأ في التعليم فاستودعك الله.

كان مصطفى كامل في مدرسة الحقوق يزاد شهرة يومًا عن يوم ويذاع اسمهُ حتى عرفه الكثيرون ولهج بالثناء عليه كل من سمع باسمه ، ووقف على شيء من أعماله الحسية الوطنية المفيدة ، فاجتمع تحت رئاسته فريق من الطلبة عظيم تكونت منهم جمعية تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه، فكانت بفضله تتلألأ بينهم أنوار الوطنية اللامعة فتضيء ما حولهم من ظلام الكسل والجمود السائد بين غيرهم من الطلبة وسواهم من الرجال.

بثّ فيهم روح النشاط والعمل ونفث بينهم ريح الشهامة والشجاعة فحركت أفئدتهم وهزّت قلوبهم فتنبهت أفكارهم وتيقظت إحساساتهم ، وصاروا كلهم وطنيين لا يخشون في الجهر بوطنيتهم أحدًا ولا يهابون في انتسابهم للوطنية عظيمًا.

عظم شأنهم وارتفع أمرهم وكثر عددهم واشتد عضدهم، فصاروا يجتمعون اجتماعات علنية وجمعيات عمومية ، ويقترحون اقتراحات وطنية مفيدة ويتناقشون في المواضيع الاجتماعية والحاجيات العمومية كأنهم مجلس شورى البلاد أو النائبون عن الأمة، وبذلك تربى في نفوسهم الإحساس بقوة الذات وتولد في أفئدتهم الشعور بالمسؤولية الواقعة على الأمة في ذات كل فرد.

لم ترهبهم ولم تخفهم العظمة ، فكانوا لا يهابون الاحتلال ولا يرهبون بطشه لأنهم كانوا على الحق ومن كان على الحق فلا يضام أبدًا.

ذلك كان اعتقادهم وبه تشجعوا وعليه اعتمدوا وكانوا يتكلمون بلسان الأمة ويطالبون مطالبة عامة ، فإذا قيل لهم: كيف لا تخافون؟ قالوا: هم يقولون: إنهم يحبون الحرية ويساعدون مهضومي الحقوق على نيل حقوقهم وينصفون المظلومين من ظالميهم، فكيف يكرهوننا إذا طلبنا الإنصاف وطالبناهم بالعدل ورد الحقوق؟ نحن لا نجادلهم إلا بحجتهم ولا نخاطبهم إلَّا بكلامهم ولغتهم.

عرف الوطني والأجنبي مصطفى كامل فأحبه الأول، وخافه الثاني، فصار على الحالتين عظيمًا مهابًا، تعلق بالعرش الخديو الكريم، وحوَّل القلوب إلى محبته رغبة في إنقاذ مصر من سلطة الأجنبي ولا يكون ذلك إلا بالالتفاف حول أمير البلاد.

اقترح أن يحتفل بعيد جلوس الخديو أسوة برعايا سائر الملوك، فحاز اقتراحه قبولًا، وكان هو الرئيس لأول احتفال أقيم بمصر لأول مرة حيث احتفل به في قاعة مطعم سانتي بحديقة الأزبكية في ٨ يناير سنة ١٨٩٣، فخطب على المجتمعين من الطلبة والأعيان خطبة صادفت هوى من نفوس السامعين، وكان لها تأثير على الأفئدة جميل، ومن ذلك الحين عظم شان الفتى وذاع اسمه، وشاع، وعرفه الخاص والعام، والتفَّ حوله كل وطني مما أخاف الاحتلاليين وأرجف فيكتور وأغاظ فشرع يعد المعدَّات ويهيئ المكائد، فأرسل إلى المعلم مقار والمعلم صير في فجاءا إليه ودخلا عليه في الغرفة فوجداه يكاد يتميز من الغيظ ويتمزق من الكدر والحنق فعلما حالا السبب وعرفاه لأنهما كانا مثله يكاد يقتلهما ارتفاع شأن مصطفى كامل وعلوّ اسمه رغمًا عما كان يبذلانه في سبيل تقدمه من وسائل التعجيز والتثبيط وما يلقيانه بين يديه من عثرات وعقبات، فلما رآهما فيكتور تحرك في مجلسه وأشار إليهما بالجلوس فجلسا صامتين.

***

فارقنا عزيزة على باب منزلها بعد أن فارقها مصطفى على عزم العودة في الصباح، وقد أخذ طريقه إلى منزله مطاطئ الرأس كثير الأفكار والهواجس، ووقفت عزيزة تشيعه بنظرها وقلبها يخفق، ولا تدري معنى لخفقانه، ولا سببًا لارتجاف أعصابها واختلاج أعضائها.

ولما غاب شخص مصطفى عن نظرها أوصدت الباب وارتدت إلى غرفتها ووقفت في النافذة، وكان الهواء باردًا فأقفلت الزجاج وألصقت عليها جنبيها الملتهب، وظلت ساعدة وقد شردت أفكارها، وتاهت عن الوجود، استمرت في ذهولها وظلت على سكونها، فلم تتحرك إلا على دقات ساعة كبيرة في المنزل الملاصق لمنزلها، فأخذت توالي العدّ بصوت منخفض حتى سكنت الساعة، فقالت: نحن في منتصف الليل يا للعجب، الساعة (ستة عربي) وأنا واقفة على قدميّ لم أدخل فراش نومي، أين كنت وبمن أفتكر؟! ألا رعى الله الحبيب وحرسه بعين عنايته، بورك فيك يا مصطفى ما أطيب قلبك وأخلص حبك، يلومونني على حبي لك وعشقي إياك، فمن يعرفك حق المعرفة ولا يهيم بك هيامًا ؟ من يقرب من حرارة هذا القلب الطاهر ولا تلدغه حرارة الحب والغرام؟ من يلمس يدك ولا تجذبه إليك كهرباء الإعجاب والإعظام، إلا بعدًا لقوم يبعدوني عنك ويبغضوني فيك، أنت الآن بلا شكٍ أمام مكتبتك تعد ما ستلقيه عليَّ من الدرس صباحًا وتعد معدات تعليمي وتنويري فطوبى لي بمحبتك وطوبى لي بوجودك، أراك كل ليلة من هنا بقلبي وانظر إليك من نوافذ بصري وأرمقك بعيون فؤادي فأجدك ساهرًا مشتغلًا مجدًا لا تنام إلا قليلًا فأذوب شفقة عليك وأسهر هنا مساعدة لك.

قضت الفتاة الجميلة شطرًا من الليل، ولم يدفعها إلى فراشها، إلا صوت الساعة حيث دقت ثماني دقات، فدخلت إلى سريرها وأغمضت جفنيها، وأخذت تعيد ألفاظ مصطفى وتتلذذ بمراجعة كلامه حتى غلبها النعاس ونامت.

كانت أعمال مصطفى واقعة وحركاته وسكناته في منزله داخل غرفة نومه مشابهة لأعمال عزيزة وأفعالها تمامًا ثم انصرف إلى فراشه في الساعة الثامنة كما انصرفت فكأنه كان يراها ويقلدها تمام التقليد فكان كما قال الشاعر العربي الحكيم.

قلوب العاشقين لها عيونٌ ترى مالا يراه الناظرونا

وأصبح يوم الجمعة والمدارس مقفلة ولكنهُ قام من نومه كعادته في كل صباح، فأصلح من شأنه وأدّى فريضة ربه وتناول طعام إفطاره، وقصد إلى منزل حبيبته وهو واثق من قيامها على انتظاره فوجدها في النافذة تبتسم لمرآه ابتهاجًا وانشراحًا فحياها بإشارة من يده وحيتهُ وصعد إليها حالًا وبدأ يكتب لها في كراسٍ جاء به إليها لهذه الغاية فعلمها الحروف الهجائية في يوم، ولم تحمله عناء في التعليم، ولم يتركها إلا وقد أعادتها عليه مرارًا عن ظهر قلب دون تلعثم ولا تحريف، فانشرح صدر مصطفى وابتهج وتذكر لساعته تحقير الأعداء والأجانب لشأن المصري وظلمهم له ولصقهم المعائب والمخازي، واعتبارهم إياه جاهلًا وقليل الإدراك والذكاء، فقال في نفسه: تبًا لهم، لينظروا فتاة من المصريين تعلمت الآن في ساعة واحدة من الزمن حروف الهجاء عن ظهر قلب وأعادتها كأنها قارئة من قبل، فما أتعس المصري معكم وأضيعه بينكم معشر الظالمين.

ثم هنأ عزيزة بهذا النجاح الباهر والذكاء العجيب ومدحها على نشاطها واجتهادها وانصرف.

❖❖❖

مرت ساعة على وجود المعلم مقار والمعلم صير في والخواجه نمروذ في حضرة فيكتور وكل منهم صامت يتفكر فما كان يرق الناظر إليهم إلا رؤوسهم تتحرك ذات اليمين وذات الشمال وصدورهم تعلو وتهبط ولا يسمع لهم غير صوت التنهد والتحسر مما دل على أنهم في همّ شديد وغم عظيم، ذلك لأنهم بذلوا كل جهدهم وصرفوا معظم وقتهم في عمل الوسائل ونصب المكائد لفشل مصطفى فما كان يزداد إلا فوزًا ويلقون فشلًا.

وبعد صمت طويل تحرك فيكتور في مجلسه فتحركوا لحركته، وحوّلوا أنظارهم إليه ومالوا نحوه فقال:

– كيف كان الاحتفال في مطعم سانتي.

مقار: وطنيًا لم يكن عظيمًا.

فيكتور: سيعظم بتوالي السنين والنار من مستصغر الشرر.

مقار: وماذا يخفينا منه أنا لا يهمني إلا مصطفى وها نحن لا ندخر جهدًا في عرقله طريقه.

فيكتور: كيف لا يهمنا يا معلم مقار؟ إنني بصفتي أجنبيًا لا أود تعلق المصريين بعرش الخديو فإن بتعلقهم هذا تزداد حمية وطنيتهم ويصعب مراسهم، ونحن لا نريد ذلك، ويخيفنا حصوله، أما من جهة مصطفى فهو المؤسس لهذه الحفلة والمقترح للاحتفال وهو الذي ترأس الاجتماع، وفي ذلك من علوّ مقامهِ وارتفاع شأنه ما لا يخفى عليك فينتشر اسمه على صفحات الجرائد في اتجاه القطر وجهات العالم فيعرفه الجميع ويثنى عليه الوطنيون ويعجب بشجاعة شبابه كل إنسان، ثم تعلم عزيزة قدره وتعجب به فتتأصل محبته في قلبها ويزداد تعلقها به، ويذهب سعينا الماضي سدى ويضيع ما بذلناه لأهلها هباءً منثورًا.

نمروذ: يمكننا الانتفاع الآن من ارتفاعه هذا.

فيكتور: وكيف ذلك؟

نمروذ: بأن نسعى في فصله من مدرسة الحقوق بحجة قيامه بالأعمال السياسية المحظورة على الطلبة فيكون هذا الرفت مثبطًا لعزيمته، وقاتلًا لشعوره أو على الأقل مشوشًا لأفكاره ومضيعًا لمستقبله فيضرب حاله وربما يتكدر مجري الصفاء بينه وبين عزيزة ولا تأتي الأيام بما نؤمل.

صيرفي: فكرة جميلة ، وأنا أقابل الليلة يوسف أفندي وغالبًا والمعلم إبراهيم وسائر أهل عزيزة وأغير أفكارهم من جهة مصطفى وإبراهيم إذا مالوا إليه ثم أقابل صادقًا ،وآخذ رأيه ، وأستعين به على استجلاب قلوب فريق من الطلبة.

فيكتور: كان هنا الآن المعلم سالم والشيخ عبيد وفهيم بك وبعض أصدقائنا فعرضوا عليَّ نتيجة أعمالهم التي عهدت إليهم القيام بها فرأيت نجاحًا باهرًا وإننا أصبحنا ذوي أشياع وأنصار عديدين ، فأرى الآن أن تظهر بالقوة والعظمة أمام الأعداء حتى يخافونا ويرهبوا سطوتنا قم نحرّك يدنا من وراء ستار فنختنق كل صوت يكاد يعلو ونقتل كل عاطفة تريد أن تتحمس، ولنبدأ كما قال الخواجة نمروذ بالسعي في فصل مصطفى كامل من مدرسة الحقوق انتقامًا منه وإرهابًا لغيره ولننشر في جريدتنا ، والجرائد المحازبة لنا عبارات التخويف والتهويل ثم أني سأجتهد لدي أولي الشان في ترقية بعض أصدقائه ترغيبًا لسلوك غيرهم مسلكهم واتحادهم معنا مثلهم.

مقار : نعم الرأي .

نمروذ : هذه علاوة على مساعينا في جلب قارب الناشئة إلينا.

فيكتور: نعم ، نعم.

ثم وقف فيكتور على قدميه فوقف المعلم مقار وصيرفي ونمروذ لوقوفه وتحول هو إلى آلة التليفون، وظلوا هم واقفين وبعد قليل عاد إليهم، وقال قضي الأمر وغدًا ترون مصطفى يكاد يختنق من التضييق عليه في المدرسة وبعض أوامر أخرى شديدة على سائر الطلبة.

ثم استأذنوا بالانصراف وخرجوا.

❖❖❖

استمر مصطفى على إلقاء دروس التعليم لعزيزة فكيف يذهب إليها كل مساء ساعة أو ساعتين وفي يوم الخميس يذهب بعد الغداء وفي يوم الجمعة يذهب في الصباح وفي المساء وكان شديد الميل جدًا لتعليمها في أقرب وقت أصول الكتابة والقراءة كي تتمكن من المطالعة وتستطيع الفهم بدون معاونته ، ولم تكن هي أقل منه ميلًا إلى ذلك فسهل عليها التعليم وأتمت في أسبوع مالا يتيسر لغيرها أن يتمهُ في أشهر حتى صار مصطفى يترنم طربًا ويبتسم دائمًا بهجة وسرورًا.

وفي اليوم التالي لاحتفاله بعيد جلوس الخديو ذهب كعادته إلى عزيزة فوجد معها في غرفتها صادقًا وابن عمها يوسف ، فلما دخل عليهم تبين له أنهم كانوا في محادثة هامة انقطعت لدخوله ، فلم يكترث ولم يبال بما رآه على وجهي الرجلين من الاستياء ، بل أخذ مجلسه بعد التحية وظل في مكانه يرمقهما من طرف خفي ، ولا وجدهما لا يتصرفان ولا يكلمانه قال موجهًا كلامه إلى يوسف أفندي.

– قصدت حانوتك مرة لأتمم معك حديثنا الماضي لم أجدك، وذهبت أول أمس لأدعوك إلى حفلة مطعم سانتي فلم أقابلك أيضًا.

– علمت بذلك فيما بعد.

صادق : دعنا بالله يا مصطفى من حديث سانتي ، وما سيجره علينا من الاضطهاد.

مصطفى : أي اضطهاد تعني يا صادق ، ألا تزال تنفر من هذه الحفلات المقدسة الواجب على كل وطني الاشتراك فيها.

صادق: إن وطن ووطني وبلد وبلدي وبلادي، وقل كل هذه الألفاظ التي جعلتها تسبيحك وعبادتك سوف تؤدي بك إلى مالا ترضاه وتسيء إليك أعظم إساءة وربما تناولت غيرك من أصدقائك وخلانك بما لا تحبه فدع هذا بالله وأصغ

إلى نصائحي ولنكن جميعا على الحياد، إن للبلد يا مصطفى حاكمًا وأميرًا وحكومة ووزراء لا نسمع لهم أنة ولا نراهم كارهين لما تكرهه أنت يا مصطفى بمدرسة الحقوق الخديوية فخليق بك أن تعلم أن الوطن يحتله الأجنبي، وما أدراك من هو وما قوته وعظمته وأن تعرف أيضًا هذا الأجنبي لا يحفل بنا، ولا يكترث لمثلنا، فنحن كالبعوضة فوق ظهر الفيل فهو لا يشعر بها أبدًا.

مصطفى: ولكن البعوض باجتماعه على الفيل يقتله، وأنا أريد جمع كلمتنا وتوحيد وجهتنا كي نتمكن من بلوغ غايتنا وهي الاستقلال، إن الحياة عدم في الأسر، والحرية أسر في الاحتلال، والاحتلال عار على الرجال، ونحن رجال لا يصح أن نرضى بالعار.

وأنا أعلم أنك تخالفني دائمًا في الرأي، وأعرف أنك لم تحضر حفلتنا أيضًا، ولكنني أقول لك بكل حرية أنك تخطئ وضعيف الرأي، إذا كنت لا تريد أن تتظاهر بالبغضاء للاحتلال، فماذا يمنعك عن حضور الاحتفال بعيد جلوس أمير البلاد، إن كنت لا تحب الأمير فأنت خائن، وإن كنت تحبه ولا تتظاهر بمحبته خوفًا وخشية فأنت جبان.

صادق: أنت تهينني يا مصطفى.

مصطفى: إن كلامي هذا على فرض اتصافك بهذه الأوصاف القبيحة فإن لم تكن موصوفًا بشيء منها فلا يحق لك الغضب إذا لا إهانة في قول الحق.

صادق: والغاية.

مصطفى: أن تكون من أعضاء جميعتنا.

صادق: إن الجمعية ستسقط عما قريب، وسترى بعينيك ما يحل بأعضائها وما يلحقنا جميعنا معاشر الطلبة من الشدة والتضييق على حريتنا بسببك.

مصطفى : فهمت الآن ماذا تعني بكلامك هذا يا صادق ، وأرى أن ننتقل إلى غرفة أخرى لنتحدث بحرية منفردين عن عزيزة.

يوسف : نعمَ ، هيا بنا.

يوسف : نعم ، هيا بنا.

❖❖❖

ولما صاروا في الغرفة الثانية وأخذوا مجالسهم قال يوسف : اعلم يا مصطفى إني أميل إليك وأحنُّ إلي حديثك كثيرا، ولقد صدّقت كلامك عن خطأنا في قبول فيكتور واقتنعت ببراهين على ذلك، ولكننا لا يمكننا الآن استرجاعها ، بل يستحيل تنازله عنها، فنحن لهذا السبب ترانا لا نحب اجتماعك بها، وكثرة ترددك عليها لعدم الفائدة من ذلك ولخوفنا من توثيق عرا المحبة بين قلبيكما بدون جدوى ثم تتحملان مراراتها وتذوقان حرارتها إلى الأبد، هذا من جهة عزيزة ، أما من الجهة الأخرى، فعلم الله إني على أفكارك متعلق بمحبة عرش أميرنا تعلقًا شديدًا، ولكنني أرى أن لا فائدة من الجهر بهذه المحبة وإعلان الكراهية للاحتلال لما أراه من قوته وضعفنا وعدم إمكان توحيد كلمتنا واتفاق قلوبنا، واعلم يا أخي أنني لا أجسر على إعلان رأيي هذا خارج هذه الجدران أو داخلها على مسمع من غيرك أبدًا، وهكذا كل إخواننا وباقي مواطنينا فارح نفسك من هذا العناء الشديد، واتق الله في مستقبلك.

صادق : خصوصًا وقد دار ذكر اسمك في الدوائر العالية، وتحدث الناس بشأنك كثيرًا، وأجمع أكثرهم على تخطئتك وخاف إذا قلت لك بصريح العبارة : إننا لا نريد أن تقابل عزيزة ولا نحب أن تعلمها أبدًا.

وكان مصطفى سريع الغضب للحق شديد الكره للباطل ، عظيم الوطأة على خصومه ، قريب الهياج، فلما سمع كلام إبراهيم وفهم قصده ، انقلب حلمه إلى غضب، وسكونه إلى هياج ، وابتسامه إلى عبوسة ، وبالجملة كأن مصطفى كامل الشاب الرقيق الجميل والفتى المهذب الحليم، ترك مجلسه لرجل غيره ، عظيم جافي الطبع هائل المنظر غضوب لا يعرف الحلم، ولا سمع به أبدًا ، فقال بلهجة الآمر المستهين بمخاطبه.

«تبًا لمن لا يذعن للحق، وسحقًا للمرائين ، هل قول الحق جرأة؟ وهل وصف الإنسان غيره بأوصافه سفاهة؟ اللهم إني أسألك بحقك إن كنت قد قضيت على هذا البلد القديم بالذل إلى الأبد، وعلى هؤلاء التعساء بالجهل والمسكنة طول الأمد أن تقبضني إليك، وتكفيني شر هذا العناء، وتريحني من النظر إلى هذه البلاد ، فقد خلقت لي قلبًا عظيمًا، وفؤادًا كبيرًا، وشعورًا رقيقًا ، وإحساسًا عاليًا، فلا أستطيع السكوت ولا يمكنني البقاء.

ماذا تقصدون بمنعي عنها وبعدها عني، تالله إنكم لا تستطيعون تنفيذ مآربكم الخبيثة، ولا تقدرون على تحقيق مقاصدكم السيئة ، هل عسيتم إن أمكنكم التفريق بين الجسدين أن تقطعوا صلة القلبين ، ألا بعدًا لكم إنكم واهمون ، قد بنيتم في الهواء، وأسستم فوق الماء ، فقد مضى الزمن الذي تتحكمون فيه على إرادة المرأة تحكمًا ظالمًا، فماذا تفعلون إن قاومتكم الفتاة، ولم ترض بحكمكم ، ألا فاعلموا أنني لا أفارق عزيزة، ولا أتحول عن محبتها ، ولو تحوّلت الأهرام عن مكانها المكين، وتزحزحت عن موضعها، فانظروا ماذا تفعلون؟».

وهنا ازداد غضب مصطفى وعظم هياجه ، فأخذ يحتج وينفعل وهم يسمعون صامتين ، ينظرون لبعضهم بعضا، ولا يجسر أحدهم أن يجيب أو يبدي أو يعيد حتى سكن اضطراب مصطفى ، وهدأ خاطره، فقام إلى غرفة عزيزة ، فوجدها

باكية، ولما سألها عن السبب، قالت: إني أنصت لحديثكم، وسمعت كل شيء، فجلس بجانبها يهدئ روعها ويطيب خاطرها.

كان مصطفى كامل بمدرسة الحقوق طالبًا نبيهًا، وعاملًا مجتهدًا، محبوبًا، وكان المرحوم علي مبارك باشا يحبه محبة عظيمة، ويعطف عليه إعجابًا وسرورًا، حتى أنه أمر أن يكون له مرتب شهري تنشيطًا وتشجيعًا، فتقيد اسمه بكشف المعلمين، وعمل له خاتمًا يختم به على استلام المرتب، وهو أول عهده بالأختام، ولما أصدر مجلته (المدرسة) أصدر الباشا أمره باشتراك نظارة المعارف فيها بخمسين نسخة حبًا في مساعدة صاحبها الشاب الذكي، الذي كان يميل إليه ميلًا غريبًا، ويعتقد أنه سيكون عظيمًا، وقد قال له: «إنك امرؤ القيس، وستكون يا مصطفى عظيمًا».

ولكن حدث أن انفلتت نظارة المعارف العمومية من المرحوم مبارك باشا.

وكان مصطفى يزداد تحمسًا وصوته يعظم علوًا، وحبه لوطنه يكبر، وعشقه لبلاده يتقوى، وغرامه في التعلق بعرش الأمير الكريم يتجسم، وهيامه بدار الخلافة العظمى يتمثل، فأخذت نار عداوة أضداده وحساده تضطرم، وابتدأت أيديهم تلقي العثرات في طريقه، والمساعي الخبيثة في سبيله، حتى كانت حفلة مطعم سانتي وخطبته التي انتقد فيها حالة الحكومة، ودعا المصريين إلى مطالبة الإنكليز بالجلاء عن بلادهم قيامًا بوعدهم، وكان في جملة الحاضرين ناظر مدرسته، فاستدعاه في الغد، وعاتبه على تصريحه، فقال له:

- إني مصري ولي الحق أن أبحث في شؤون مصر.

وشدد لهجته، فرفع الناظر أمره إلى النظارة، وطلب إليها منع الطلبة من الاشتغال بالسياسة، وهو محرم عليهم اشتغالهم بها.

وسعى وكيل فيكتور من جهة أخرى ومشى نمروذ بالسوء أيضًا، وجرى المعلم صيرفي للوقيعة به كذلك، وساعدهم من أهل عزيزة وأخوالهم المعلم إبراهيم وصادق وسالم بك والشيخ عبيد وغيرهم ممن لم يرق في أعينهم ارتفاع واحد منهم عليهم غباوة وجهلًا وحسدًا.

فكانت نتيجة هذه المساعي الفاسدة إصدار نظارة المعارف العمومية منشورًا عامًا لجميع المدارس يحرم على الطلبة اشتغالهم بالعموميات جملة والسياسة خاصة، كما أخبر فيكتور، وأوعز إلى نظام المدارس بالتشديد على التلاميذ، ومعاقبة من يخالف نص المنشور بعقوبات شديدة، وحرمانهم من الدراسة أيامًا معدودة أو إلى الأبد كما يتراءى لهم.

فرأى الطلبة شدة هذا المنشور وعظيم خطورته عليهم، وأحدث بينهم هرجًا ومرجًا، وتحقق مصطفى كامل أنه المقصود بالذات من هذا المنشور.

ولما كان لا يمكن أن يرجع عن خطته أو يحول عن عزمه أو يتقهقر فيما رسمه لنفسه من السير إلى الأمام في طريق الاستقلال، وإنقاذ البلاد من قبضة الاحتلال، وأنه لا يمكنه إبطال مساعيه في تخليص عزيزة من فيكتور، وهذا لا يسكت عنه طالما هو يسعى سعيه هذا، وقد رأى تغييرًا كبيرًا في معاملة المدرسة له، ولاحظ غض أنظار الأساتذة عنه، وشعر بشبه قسوة من القائمين بأمر النظام المدرسي، فعوَّل على ترك هذه المدرسة، وعزم أخيرًا عزمه الأكيد على ذلك، فقصد وكيل المدرسة، وشافهه بهذا العزم، وأدخل في حديثه بعض العتاب والتبكيت على ما أظهره له من بوادر الاضطهاد، ثم تأثر سريعًا، وانفعلت نفسه حالًا كما هي عادته دائمًا، فتكلم كلامًا شديدًا، وقال: إنني عالي النفس لا أطيق التضييق ولا أرتضي الذل، ولقد تحقق لي أنني المقصود بمنشور النظام الأخير، وشعرت بما بدأتم في تنفيذه معي من الاضطهاد، فأنا لا أقبل هذه المعاملة مطلقًا، ويتحتم علي مثلي ترك

هذه المدرسة التي أصبحت مسرحًا سياسيًا، وسترى أنني أموت حائزًا على لقب باشا، ويبقى مثلك بعدي كما هو من أحد البكاوات، ثم ترك المدرسة متكلًا على وجوده بمدرسة الحقوق الفرنساوية، وأنها سينال شهادتها عما قريب.

❖❖❖

قال مصطفى كامل ذلك القول، وأخاف الرجال ذلك الخوف، وأقلق بالهم، ذلك القلق وهو شاب لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره، فرحمه الله كم كان عظيمًا في صغره وكبره.

ولما ترك مدرسة الحقوق الخديوية أعجب العقلاء بشهامته وشممه وعزة نفسه، وإيثاره تضحية مستقبله على الرجوع من خدمة وطنه.

ومن ذلك العهد وبعد ظهور كتابه «المسألة الشرقية» ذاع ذكره بين جميع الطبقات، ودوى في أنحاء القطر كلها، ووصل شيء منهُ على بعض الجهات الغربية والأقطار الإسلامية، فعرف الناس أن هناك شابًا أولع بحب وطنه، وعشق عرش مليكه، وهام بدولته، وجهر بغرام الاستقلال والحرية، وأقسم بهم جميعًا، وهم لو تعلمون أعز شيء لديه ألا يرجع ولا يرعوي حتى يحقق آماله، وكان قبل ذلك غير معروف إلا من مقالاته الرنانة التي كانت الأهرام والمؤيد وبعض الجرائد الأوروبية تنشرها بإمضائه، ومن ذلك العهد أيضًا وبعد حضور المرحوم السيد عبد الله نديم إلى مصر في سنة ١٨٩٢ وسماعه بمصطفى كامل، وتقريبه له منه، واقتباس مصطفى لأساليبه وحفظه لنصائحه ومبادئه ظهر ظهورًا عظيمًا، وازداد قوة ونشاطًا.

وكان لا يفتر أيضًا عن تعليم عزيزة حتى أصبحت قادرة على القراءة والكتابة بكل سهولة، وتعلمت بعض العلوم العالية، وصارت تساعده كثيرًا في أشغاله الكتابية.

وعرف يوسف أفندي ابن عمها، وصالح ابن أخيه وغيرهما من أهلها فضله، ومقدرته، فالتفوا حوله، وعاهدوه على مؤازرته، والسعي معهً لتخليص عزيزة من خطبة فيكتور، فكان سروره عظيمًا، وحدث في أثناء هذه النهضة وبعد الاحتفال بعيد الخديو، وتقريب المعية السنية لمصطفى ورضى الجناب العالي عنهُ أن جاء مصر المسيو دلونكل الفرنساوي، الذي كان يتظاهر بحب المصريين والغيرة عليهم، فاجتمع بمصطفى كامل، وتعرَّف به، فأعجب بفصاحته وذكائه، وطلاقة لسانه في الخطابة، وقوة تأثيره على سامعيه، فرغبه في السفر على فرنسا للتبحر في الحقوق، والتعمق في غيرها من أنواع المعارف والتجارب اللازمة لمثله، وكان مصطفى شديد العزم، قوي الإرادة، فصمم على السفر، وفعلًا شخص إلى باريس في آخر سنة ١٨٩٣، واستمر هناك يتعرف بكبار الصحفيين وعظماء السياسيين، وهم معجبون بهمته، مندهشون من جرأته وقوة جنانه، وهو معجب بحريتهم وموافقتهم له على انتقاد الإنكليز.

ولما كان يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٤ احتفل هناك أيضًا بعيد جلوس الخديو احتفالًا فخيمًا، شهده أكثر المقيمين في باريس من المصريين، وحضره أغلب التلاميذ المرسلين لتلقي العلوم على نفقة الحكومة المصرية، فألقى مصطفى عليهم خطابًا استنهضهم فيه على الثبات في طلب جلاء الاحتلال عن مصر، فوافقوه، واتفقوا على الاستنجاد بفرنسا في ذلك الطلب على أن تكون حجتهم وعد إنكلترا الذي وعدت به في بدء الاحتلال.

وعلمت نظارة المعارف المصرية بذلك، فأظهرت نفس الاضطهاد الذي أظهرته عقب الاحتفال الأول في مطعم سانتي بالأزبكية سنة ١٨٩٣ بأن أخرجت كل التلاميذ الذين اشتركوا في ذلك العمل من عداد الإرسالية.

❖❖❖

ولا يغرب عن ذهن القارئ الكريم ما كان في قلب عزيزة من اللوعة والهم يوم كاشفها حبيبها على السفر إلى باريس، تلك الملاك الطاهر التي لم تعتد فراقه، ولم تألف بعده، وكان وجوده بجانبها تسليتها العظمى على همومها وأكدارها.

قضت الهائمة بحبه أيامًا وليالي قبل رحيله لا يهدأ لها بال، ولا تجف لها دمعة، ولا تأخذها سنة الكرى، وكان هو يسليها ويلومها على بكائها، ويشجعها بذكر ما سيناله من هذا السفر من الرفعة والجاه، وما يؤمله من بلوغ الآمال، مما يساعده على مزاحمة فيكتور في اسمه وشهرته، ويكسبه حب أهلها له ونفورهم من فيكتور، فيتمكن إذ ذاك من قهره والغلبة عليه، وتخليصها من يده، فكان روعها يهدأ قليلًا لهذه الأماني الكبيرة والآمال الغالية العظيمة.

وكان يوم الفراق يومًا مشهودًا، وساعة الوداع هائلة شديدة، وقد أقلعت به الباخرة، وعزيزة مع المشيعين ترطب الثرى بمدامعها، وتسقي ورد خديها بماء جفونها.

وقضت أيام البعاد على مثل جمر الغضا ونار لوعتها تشوي فؤادها، وتحرق مهجتها، ولم يكن يسليها غير خطاباته المتتابعة عليها، ووردوها عليها، فكانت تجلس إلى مكتبتها طوال الليل تحرر له تلك الردود، وتبثه أشواقها، ولوعتها على فراقه، وما تقاسيه من مرارة العيش في بعاده.

وكانت تقرأ جرائد مصر العربية والأفرنجية، وتطلع منها على أعمال حبيبها، وما كان يلقيه على الباريسيين وغيرهم هناك من الخطب والمقالات، وتقف منها على إعجاب القوم به وإطرائهم له، فتزداد تعلقًا به، ويعظم فرحها، وابتهاجها بعظمة ومجده.

وكان لقراءتها في الجرائد عن نيله شهادة الحقوق من طولوز في فرنسا، وفوزه في الامتحان، وتقدمه تقدمًا باهرًا على كثير من أقرانه رنة فرح عظيم في فؤادها، وأرسلت إليه من فورها تهنئتها على لسان البرق، فكان لها في نفس مصطفى أعظم وقع، وأرسل إليها ردًا جميلًا.

وأقام مصطفى في فرنسا أمدًا غير قصير، ثم عاد إلى مصر في أوائل سنة ١٨٩٥.

فكان الخطاب الذي أرسله إلى عزيزة يخبرها فيه بعزمه على العودة أحسن خطاب تلقتهُ والبشرى التي جاء بها أعظم بشرى، فكأنما كانت بشرى يعقوب برجوع يوسف أذهبت همومها، وأزالت أكدارها.

وكان يوم وصوله أسعد أيامها، وساعة رؤيته أطيب ساعاتها، ولا نطيل وصف هذا اللقاء، فالعاشق يعرف تأثيره وما يحدثه في قلب العشاق، وما يحصل حينئذ في أفئدة المحبين.

وكان الجمع الذي استقبل مصطفى عظيمًا من أقرانه وأحبابه والمعجبين به وبعض أضداده وحساده، الذين راجعوا أنفسهم، وعلموا أنهم كانوا على ضلال مبين.

وكان في الجمع يوسف أفندي وصالح والمعلم إبراهيم، فصافحوا مصطفى مع المصافحين، ورحبوا به، وهللوا لقدومه.

وكان على بعد بضعة أمتار من الباخرة القادم عليها مصطفى كامل إذ ذاك رجلان يكاد كلاهما يتمزق صدره غيظًا، ويختنق كيدًا وحنقًا، فلما وصلت الباخرة، وشاهدا احتفاء القوم بالقادم وترحيبهم به، ضاقت الأرض في وجهيهما، واسودت الدنيا في أعينهما، ووليا يلعنان ويكفران، وذهبا توًا إلى منزل وكيل فيكتور وإذ رآهما قال من فوره: ما الذي رأيته يا معلم صيرفي؟

قال: «رأينا حسرة وشؤمًا، يخبرك نمروذ، تكلم يا أخي».

وكان بجانب الوكيل رجل جالس يتأوه ويتألم، فلما رأى نمروذ لا يجيب ضاق ذرعًا، وقال له:

- تكلم يا نمروذ، قل: ماذا رأيتما؟

فقال نمروذ: ماذا أقول يا صفوت؟ إن الذين قابلوا مصطفى كامل يفوق عددهم عن عدد الذين قابلوا جميع ركاب الباخرة، ولم يكن أهله وأقاربه فقط، بل غيرهم كثيرون، منهم يوسف صالح وإبراهيم، وأظن أن صادقًا لم يفلح في تخويف الطلبة وإرهابهم كما أوعزنا إليه، فقد رأيت منهم هناك كثيرين.

قال الوكيل: إنني لا أظن هذا الشاب جدير باهتمامنا هذا، فاتركونا الآن من شأنه، وسأنظر في أمره فيما بعد.

ثم خاضوا في أحاديث مختلفة، ودبروا مكائد جهنمية ودسائس خبيثة، ثم انفرط عقد اجتماعهم، وانفضوا كل إلى منزله.

❖❖❖❖❖

قالت عزيزة لمصطفى: إنني أتقنت اللغة الفرنساوية في غيابك على قاعدة تعليمك، وكنت أطالع جرائد باريس، وأسر مما كان ينشر فيها من أخبارك.

فقال : إن باريس جميلة المنظر، ولكنها لم تحوّل قلبي عن حبك يا عزيزة، فإن ذكركِ كان فيها أنيسي ، والافتكار بك ملاذي وجليسي، فما حضرت حفلة أو مجتمعًا إلا تمثلتك أمامي، ولا تكلمت أو خطبت إلا واسمك أول كلامي وآخر خطابي ، وبالجملة فأنت محور جهادي واجتهادي ، وسبب جهدي وجدي وأسفاري واغترابي، إن الكتاب الذي أعطيتكِ إياه قبل أن أعلمكِ القراءة والكتابة يشتمل على خطتي هذه كلها، وسوف ترين إنني رسمتها ولن أحيد عنها أبدًا، ولسوف تعلمين أنني سأتمكن من تحقيق آمالي ، وأخلصك من يد فيكتور، كما سجلت على نفسي بيدي في ذلك الكتاب، فاحفظيه عليّ ، وطالبيني بالقيام بما فيه إذا توانيت لا قدّر الله ، وسأعود إلى باريس عما قريب ، وتسمعين يومئذ ما أفعله.

فقالت عزيزة قائلة : أتسافر أيضًا؟

مصطفى : نعم يا عزيزة ، ولمَ هذا الجزع؟

عزيزة : أنا لست بجازعة ، ولكن الفراق شديد ، والبعاد مرّ المذاق، وقد كابدت فيها من العذاب أشكالًا وألوانًا.

مصطفى : عليك بالصبر يا عزيزة ، وكأنني بك خائفة منهم، ألا فاعلمي أن يوسف وصالحًا وإبراهيم وكثيرين من أهلك وأصدقائهم أصبحوا من أنصاري ، وقد عاهدوني أمس على الولاء والسهر عليك، وأقسموا أنهم يدعون رؤوسهم تذهب عن أبدانهم قبل أن تكوني لفيكتور، ولذلك تريننى الآن مسرورًا مرتاح الضمير لأني أعلم أن فيكتور أضعف من أن يمتلك مثلك وحيدًا، وإنما هو بأنصاره من أهلك قوي عنيد، نعم إن له أنصارًا عديدين من غير أهلك، وقليلين منهم، ولكنهم جميعًا مدهوشون من أمواله ثم لا يلبثون أن يروا الحق فيتفرقون من حوله، فإن الحق أحق بالإتباع، وكان الباطل زهوقًا.

اشتغل مصطفى أفندي كامل بالمحاماة بعد رجوعه من باريس، حاملًا شهادته النهائية في الحقوق، فقضي فيها أشهرًا ثم رآها أضيق من أن تسع مطامعه التي أصبحت سارية في جسمه مع دمائه، فعزم على ترك المحاماة، ولم يكفه ما كان ينشره في الجرائد من المقالات الوطنية الحماسية، فصمم على الخطابة في المتنديات والمحافل، فألقى أول خطبة له في مدينة الإسكندرية وتناقلتها الصحف، فرأى الناس فيها من شدة اللهجة على الاحتلال، وطالب بالجلاء ما لم يعهده من قبل ولا يظنون أحدًا يجسر على قوله، فأعجبوا بالشاب، وشاركوه في إحساسه، وشاطروه شعوره، وأطروه، وشجعوه، فعظم ميله إلى الخطابة والصحافة، ولذّ له الفوز، فوطن نفسه على الاستماتة في طلب الجلاء.

ولما كان يعلم أنه ضعيف بنفسه، وليس له أنصار عديدون، وأنه يعجز عن القيام بهذه المأمورية العظيمة بأهله وأحبائه رأى أن يستعين بفرنسا، وشجعه على ذلك ما لاقاه في رحلته الأولى من احتفاء الفرنساويين به، وتأمينهم على طلبه للجلاء.

فترك صناعته فعلًا وانقطع للجهاد ثم سافر إلى باريس، كما أخبر عزيزة، ورفع باسمه إلى مجلس النواب مرسما كبيرًا يمثل مصر والاحتلال الإنكليزي بشكل يدل على توسل المصريين إلى فرنسا أن تساعدهم كما ساعدت اليونان والأميركان والبلجيكيين والإيطاليين في نيل حريتهم، ورمز إلى مصر العزيزة بغادة فقيرة عارية من كل ملابسها إلا ما يستر عورتها، مكبلة بسلاسل الأسر وأغلال الظلم والاستعباد، والأسد البريطاني قابض على هذه القيود، وبجانبه رجل هائل الصورة قابض على سيفه محدقًا بمصر تحديقًا شديدًا كأنه يريد أن يبتلعها بفمه، وذلك مثال القابضين على أمور البلاد المصرية بالقهر والقوة، وعلى يسار تلك الصورة الهائلة ترى النيل قد مُثّل بشيخ من شيوخ الأعصر الخالية متكئ على إناء

تتفجر منه عيون النيل، ومن رقيق المعاني أن ذلك الرجل الهائل ضارب بإحدى رجليه في النيل رمزًا إلى معنى الاحتلال، وقد وضع في أسفل اللوحة هذه الأبيات باللغتين العربية والفرنساوية.

أفرنسا يا من رفعت البلايا ... عن شعوب تهزها ذكراك
انصري مصر إن مصري بسوء ... واحفظي النيل من مهاوي الهلاك
وانشري في الورى الحقائق حتى ... تجتني الخير أمة تهواك

وهذه صورة الكتاب الذي رفعه إلى مجلس النواب، وهو شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره لا حول له ولا قوة ولا مالًا إلا أصغريه وقوة جنانه، وكانت الشيوخ من الحكام والأمراء تخشي أي ترفع أصواتها بمثل ذلك، ولكنه كان قد أخذ على نفسه أمام حبيبته عزيزة موثقًا لن يخلفه.

يا حضرة الرئيس

إني بأشد انفعال يخالج القلب تأثيره أتشرف بأن أقدم لمجلس النواب الذي أنت له نعم الرئيس هذه اللوحة التي تمثل مصر طالبًا من فرنسا أن تكون لها خير عضد يساعدها على استرجاع حريتها واستقلالها، وأن هذه اللوحة تمثل لدى مجلس النواب حالة أمة ناشئة غيورة على حريتها المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عامًا، ولقد برهنت الأمة المصرية يا حضرة الرئيس مع ما يعتورها من المصائب الشديدة عن سكينة، وصبر عجيبين استمالت بهما قلوب الأمم الأوروبية، ولكن ما اعتراها النصب جاءت مستغيثة بفرنسا، هذه الدولة العظيمة التي أعلنت حقوق الإنسان، والتي سارت من منذ قرن في سبيل التقدم والمدنية.

جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة التي حررت عدة من الأمم، فهل تجاب في استغاثتها وتضرعها، وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها في العالم الإسلامي للوثوق بها.

على أن ذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب أسماء الأمم العديدة التي حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها فلتحيي فرنسا محررة الأمم

***

ولم يكن كدر فيكتور وغيظه بأعظم من كيد أنصاره وأشياعه، فقد أحدث لهم هذا الكتاب، وتقديم ذاك الرسم قلقًا، وأي قلق، فتوالت اجتماعاتهم، وكثرت مفاوضاتهم، وتعددت أبحاثهم، وهجرت محافلهم، وماجت مجالسهم، وأكثروا من المشهورة، والأخذ والرد، وكان أشد الجميع همًا وغمًا الوكيل والخواجة نمروذ والمعلم صيرفي وسالم بك وصفوت.

وأخذت الجرائد الاحتلالية تطعن على مصطفى وتسفه مسعاه، وتنذره وأنصاره بالويل، وسعى الساعون بالباطل فأوهموا البسطاء وأرهبوا الضعفاء، وأخافوا الجهلاء، وبالجملة أخذ هذا الكتاب دورًا عظيمًا ودوي صوت حادثته دويًا هائلًا في جميع الأقطار، وتناقلته الصحف، وأتت التلغرافات العمومية على مغزاه، وتحركت له الفحول، وقام له السواس العظماء، وقعدوا، غير أنه لم يأت بالنتيجة المأمولة من فرنسا، ولكن الفرنساويين رحبوا بالخطيب المصري الشاب، وتقاطر إليه مراسلو الصحف وكاتبوا الجرائد يحادثونه، وينشرون آراءه في جرائدهم، وتسابق القوم يدعونه للخطابة في أنديتهم ومحافلهم، فكان يخطب بالفرنساوية الفصحى كأحسن خطيب فرنسي، وكل كلامه يرمي إلى الغرض عينه.

وأول خطبة سياسية ألقاها في محفل عام بأوروبا خطبتهُ العظيمة في ٤ يوليو ١٨٩٥ بمدينة طولوز، وهي المدينة التي نال فيها شهادة الحقوق، فكان لها دوي هائل في الأنحاء، ونبهت الجرائد عليها، وترجمتها الصحف المصرية، ومن ثم عرفت أوروبا مصطفى أفندي كامل الخطيب المصري الوحيد الذي أوقف حياته

على الدفاع وعن وطنه والذود عن حقوقه ، وجهرّ بكل جرأة أنه يطالب عن المصريين عمومًا تلك الدولة المتمدنة برد حقوقهم المسلوبة.

فصدّر خطابته هذه بتاريخ الاحتلال وعهوده ، وفصل أحوال النظارات المصرية، وسيطرة الإنجليز فيها واستئثارهم بالنفوذ والوظائف واحتقارهم الأهالي وبرهن على أن وجود الاحتلال البريطاني بالقطر المصري يخالف كل المعاهدات الدولية وإخراجهم منه يوافق صوالح جميع الدول الأوروبية.

وكان المصريون قد شعروا بما يعود عليهم من جهاد هذا الشاب الغيور من الفوائد والحرية فلم يعترضوا على أقواله، ولم يحتجوا على تصريحاته إلا بعض الأذناب وكثير من الأجانب ولكنهُ لم يكترث لهم ولا عاقه كيدهم.

وكانت عزيزة ومحبو مصطفى يوجسون عليه خيفة ويتقدمون إليه أن يقلل من حملته، ويخفف من شدته، فما كانوا يلقون منه إلا نفورًا ، وكان تحذيرهم له ، وتخويفهم إياه، وسعيهم لديه لا يزيده إلا قوة على قوة ، وحبًا في زيادة الجهاد فوق حبه، فصار من ذلك الحين ينتقل من مجمع إلى غيره، ويخطب بين جماعة، ثم بين آخرين على اختلاف الأجناس، فتارة بالعربية وتارةً بالفرنسية ، وأخذ من ذلك الوقت يكاتب الكبراء والعظماء ، ويستلفت الدول إلى أحوال مصر ، ويستنهض الهمم إلى إنقاذ المصريين، وكانت أخباره في الجرائد تصل إلى عزيزة وتقرأ تفاصيلها من كتبه العديدة التي ترد عليها منهُ دون انقطاع فتسرّ ، وتبتهج فرحًا.

وكان حب مصطفى لدولتنا العلية مماثلًا حبه لمصر ، وعشقه للعرش الحميدي مشابهًا لعشقه للأريكة العباسية ، وميله إلى المسلمين خصوصًا والشرقيين عمومًا مساويًا لميله إلى المصريين بالتمام، فكانت خطبه تتناول الدفاع عن العموم، وطلب الجلاء عن مصر على الخصوص.

ولما كانت ظروف الأزمة الأرمنية واشتداد هياج الأمة الإنكليزية على دولتنا العلية الذي كان ناتجًا عن أقوال المستر غلادستون شيخ الأحرار رأى مصطفى أن يكتب إليه يسأله رأيه في المسألة المصرية التي هي أحق بعنايته من المسألة الأرمنية، وأن المصريين أولى بالشفقة من الأرمن، وخصوصًا من نفس الدولة التي تدّعي الانتصار للإنسانية، فكتب من باريس في ٢ يناير ١٨٩٦ يقول:

أيها السيد المبجل:

اسمحوا لأحد أبناء وادي النيل، الوطني لا أمنية له إلا تحرير بلاده إن يقصدكم اليوم ليسألكم رأيكم عن حل مسألة مصر.

فلقد كنتم منذ احتلت إنجلترا وطننا أشد نصراء الجلاء وجاهرتم مرارًا عديدة بأعلا صوتكم: أنه لا يليق ببريطانيا العظمى أن تحتل مصر إلى أجل غير محدود فإن هذا يمس بشرفها أشد المساس.

وأننا سجلنا كل تصريحاتكم، وحفظنا مجاهراتكم، ولو أنكم لم تستطيعوا الوفاء بوعدكم عندما كانت السلطة في يدكم لأسباب نجهلها بالكلية فإننا لا نزال نظن اعتقادكم الآن كاعتقادكم في سالف الزمن أي أنه ليس لمسألة مصر إلا حل واحد وهو الجلاء.

ولهذا رأيت من المفيد أن أرجوكم في هذا الوقت الذي اضطربت فيه أحوال المسألة الشرقية أن تعرفونا عن حقيقة إحساسكم نحو حظنا.

فإن كنتم لا تزالون من نصراء الجلاء كما نفتكر ذلك فمتى تظنون أنه يمكن تحقيق هذا الجلاء المنتظر من عهد بعيد؟

وفضلًا عن ذلك فإن تصريحًا منكم بشأن مسألة مصر يكون لهُ أعظم أهمية في هذه الأيام التي يحسب فيها الجم الغفير من أبناء ديننا المسلمين أنكم أكبر عدو رآه الإسلام.

وإني مع انتظار الجواب على كتابي هذا أرجوكم أيها السيد المبجل أن تتفضلوا بقبول عظيم احترامي.

(مصطفى كامل)

❖❖❖

أرسل مصطفى كامل ذلك الكتاب إلى أعظم سواس بريطانيا، ورجاه أن يردّ عليه، وكان أمله كبيرًا بوصول الرد في أقرب وقت لأنه كان شديد الثقة بنفسه عالي الهمة كبير القلب عظيم الجرأة، وقد تم ما أمله فإن المستر غلادستون أجابه بقوله:

سيدي العزيز:

إنني أستحسن ما فهمته من إحساساتكم نحو بلادكم بصفة كونكم مصريًا، ولكنني مجرد بالمرة عن كل سلطة.

أما آرائي فإنها لم تتغير قط وهي دائمًا أنه يجب علينا أن تترك مصر بعد أن كنتم فيها بكل شرف، وفي فائدة مصر نفسها العمل الذي من أجله دخلناها «وإن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين»، ولما كنت في منصبي أخيرًا أملت مساعدة الحكومات الأخرى توصلا إلى تسوية هذه المسألة المهمة والسلوك الذي اتبعه مسيو وادنجتون في سنة ١٨٩٢ شجع أملي غير أن المخابرات لم تخط خطوة واحدة مع عظيم ما أملنا إذ ذاك، ولست أدري لأي سبب.

ولقد جاهرت بكل تصريحاتي في مجلس النواب سنة ١٨٩٣، ولم يبق عندي شيء أضيفه عليها، ولكن كنت مستعدًا لعمل كل حسن في سبيل إعطاء آرائي

تـأثيرًا، ألا إنـني تركـت المنـصب بـالمرة، ولـست الآن إلا أحـد أبنـاء بـلادي الخصوصيين، وإني أتشرف بأن أكون منك الخاضع الصادق.

«غلادستون»

ولا حاجة لبيان أهمية ذاك الخطاب وهذا الجواب وما حدث بسببهما من الهياج، فقد اشتغلت بهما الجرائد كلها في أكثر أنحاء العالم على اختلاف لغاتها وممالكها ومبادئها وسياستها، فعلقت الشروح الصافية، وأبدت الآراء المختلفة، وظلت تكتب ردحًا من الزمن، وكان وكيل فيكتور وأشياعه يزدادون كمدًا، ويتولاهم الهم والكدر، وكانت عزيزة وابن عمها يوسف أفندي وصالح وبعض أهلها الذين مألوا حبيبها وعاهدوه على الولاء يزدادون محبة له وتعظيمًا لقدره، واتفق فريق منهم على رفع التهاني إليه بفوزه ونجاحه، وأرسلت عزيزة رسالة مسهبة في ذلك.

وكان مصطفى لا يقطع عن عزيزة مراسلاته الغرامية وكتبه الودادية فيبثها شوقه بأجمل الألفاظ وأبلغ المعاني وأفصح الكلام ولا غرو، فهو الأديب الأريب والكاتب النحرير، فكانت رسائله سلوتها وتلاوتها شغلها الشاغل.

ولما عاد من باريس في فبراير سنة ١٨٩٦ كان ليوم وصوله شأن عظيم احتفل به الوطنيون احتفالًا شائقًا، وقابلوه مقابلة العظماء والكبراء من فحول السياسة أو الوزراء الفخام أو الأمراء أو الملوك.

ولا يجهل اللبيب مقدار فرح عزيزة وابتهاجها كما لا يعزب عن فهم الزكي مبلغ همّ فيكتور ووكيله.

واشتهر فيكتور بالإحسان وحب الإنسانية والحرية، فكان لا يقدر على معاداة مصطفى خوفًا من تكذيب الناس له فيما يدعيه، ولكنه يخشاه ويخافه، فكان يدبر المكائد وينصب الحبائل على يد وكيله وبمساعدته وهذا ينفذها من وراء ستار

لإطفاء هذه الجذوة المضطرمة وإخماد هذه النار المشتعلة ، وإسكات هذا الصوت العالي، وتكسير هذه القوة الهائلة، والهمة الشماء، والعزيمة الفائقة.

ففي ١٠ مارس سنة ١٨٨٦ تكلم وكيل فيكتور في التليفون مع نمروذ وقال له:

– احضر الليلة فأجاب بالطاعة.

ولما كان الليل ذهب ومعه المعلم صير في وأحد أقاربه إلى محل وكيل فيكتور، فوجدوا عنده صادقًا ، والشيخ عبيدًا وسالمًا بك وصفوت باشا، وبينهما اثنان لم يعرفوهما خرجا عند دخولهم ، فأخذوا مجالسهم بعد التحية، ثم دار الحديث:

الوكيل : اسمعوا نص هذه الرسالة التي وصلتني اليوم، ومن أجلها أرسلت في طلبكم.

بعد الديباجة : أخبر جنابكم أن على أفندي فهمي الضابط بالأورطة الأولى البيادة وشقيق (مصطفى كامل) قدم بطريق السيكورتاه في ٨ مارس سنة ١٨٩٦ الجاري استقالته من الخدمة.

الإمضاء

فما ريكم؟

سالم : عجيب وماذا يقصد يا ترى؟

عبيد : رأى ما ناله أخوه مصطفى من الشهرة ، فمالت نفسه إلى مشاركته طمعًا في نيلها.

صادق : إن الوكيل يريد أخذ رأينا في الانتفاع من هذه الحادثة، فماذا تشيرون به؟

نمروذ : أرى ألا نقبل استقالته، فيخرج بسلام، بل ندبر له تهمة تؤدي به إلى مجلس التأديب، فيخرج محكومًا عليه ، ونكون قد أرهبنا أخاه مصطفى، وقضينا على آمال الآخر إن كان غرضه بالاستقالة مشاركة أخيه ضدنا.

صيرفي : نعم الرأي.

الوكيل : ولكنني رأيت ما هو أشد وأرهب ، فاصغ يا صفوت باشا، لأنني أريد منك أن تقوم بإتمام هذا العمل والسعي في إنجازه ، تعلمون أن المخابرات الآن متبادلة بين التعايشي أمير الدراويش بالسودان والحكومة المصرية، ولا تلبث الحرب أن تقوم بين الطرفين، فأرى أن نوعز إلى الحربية أن تتخذ هذه الاستقالة وسيلة لمعاقبته عقابًا شديدًا بحجة أنه قدمها بعد إعلان الحرب.

صفوت: ولكن الحرب لم تعلن بعد.

الوكيل: وهل في قدرة أحد الاعتراض على أقوالنا أو انتقاد أعمالنا؟ فافعل ما تؤمر.

***

وأعلنت نظارة الحربية المصرية معاقبة الضابط علي أفندي فهمي بتجريده من رتبته، وتنزيله من ضابط إلى جندي نفر بسيط.

ولكن خاب فأل القوم ، فقد ازداد مصطفى كامل قوة وقوي أملًا ، وعظم فخرًا ، وقام في ١٣ أبريل من السنة نفسها (١٨٩٦) خطيبًا في تياترو زيزينيا على جمهور من أفاضل وأعيان الأوروبيين ، فألقى خطبة كانت من أعظم وأسمى ما قاله ، وكان وقعها في نفوسهم شديدًا، قال في أثناءها : «..... ولقد كان أولئك الذين يدعون الدفاع عن الاحتلال الإنكليزي يزعمون أنهم أوقفوني إلى الأبد إذ يظنون بسذاجة لا مثيل لها أن الإجحاف الذي لحق أخيرًا بأحد أخوتي يضعف

قواي أو يوهن عزيمتي أو يقلل مجاهدتي في سبيل سعادة بلادي، فأخطؤوا الظن لأنني بعيد عن أمل، وسأستمر بقدر استطاعتي في المدافعة عن وطني العزيز سأستمر – ولا يوقفني في طريقي إلا الموت – في وصف مصائب مصر وآلامها، والمناداة في كل مكان بحقوقها المقدسة، والمطالبة بحريتها واستقلالها ..... إلخ».

❖❖❖

وأخذ مصطفى كامل من ذلك الحين يكثر من الخطابة، ونشر المقالات في الجرائد العربية والإفرنجية، مضحيًا حياته في إنقاذ مصر، والذب عن الدولة العلية، والمدافعة عن جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، والانتصار للشرقيين على الإطلاق.

وبلغت أخبار جهاده إلى الحضرة السلطانية، ورأى جلالة السلطان الأعظم غيرة هذا الشاب، ودفاعه عن أمته ودولته، خصوصًا دفاعه في الحوادث الأرمينية، فكافأه بأن أهداه في ٧ أغسطس ١٨٩٦ علبة من الذهب الخالص مرصعة بالجواهر النفسية، وعليها اسم جلالته بشكل طغراء مرصعة بالأحجار الكريمة.

ففاز على أعدائه فوزًا عظيمًا، ارتفع على خصومه ارتفاعًا كبيرًا، وذهب إلى حبيبته عزيزة، فأظهرت له من دلائل المحبة أعظمها وإمارات الافتخار به أكبرها وأعجبت به كثيرًا، وكان عندها يوسف وصالح، فأخذ مصطفى على ذكر هذا الأنعام، يحدثهم بما رآه في الأستانة عندما سافر إليها، ويصف لهم ما شاهده من محاسنها، ثم دعوا الله أن يديم مولانا الخليفة الأعظم وخديونا المعظم.

❖❖❖

قرأ القارئ الكريم في الفصول السابقة أن لفيتكور وكيلًا ، ولكنه لم يعلم من هو؟ ولتعريفه له أقول: أنه ابن عمه ، وكان يشتغل في الخفاء ، لأنه داهية في نصب الحيل ، وتدبير المكائد وشيطان مريد ، وإبليس عنيد، اتخذه وكيلًا لأشغاله، ومعينا له على أعماله، فكان يده العاملة ضد مصطفى ، وعقله المدبر للدسائس الجهنمية التي تنصب في طريقه ، والمعول الحديدي الهائل الذي يهدم به آماله الغالية ، وكان له من أهل عزيزة أصدقاء يعاونونه ، ومن غيرهم أنصار يساعدونه ، وكان هذا الوكيل مخلصًا فوق الحد في خدمة ابن عمه فيكتور وهمه الوحيد أن يرضيه من أي طريق كان.

أخذت الجرائد تنشر خبر هذا الإنعام السلطاني على الشاب المصري الجريء ، وتهنئه أعظم التهاني، فاشتهر أمره كثيرًا ، وتعرفَّ به الكثيرون ، وتقرَّب منه الناس، وتطاولت نحوه الأعناق ، وشخصت إليه الأبصار.

وفي ٤ أكتوبر سنة ١٨٩٦ أيضًا ، أصدر سمو أميرنا المحبوب أمرًا كريمًا برد رتب ونياشين الضابط علي أفندي فهمي شقيق مصطفى كامل إليه ، وشكره السردار على ثباته وطاعته في خدمة الجندية التي قضى فيها ستة أشهر ونصف يعمل كجندي بسيط بالحلم ورباطة الجأش والشجاعة ، فكان ذلك أيضًا فوزًا لمصطفى عظيمًا كمد أعداءه وأخمد حركتهم ، خصوصًا وكيل فيكتور.

وقابل مصطفى عزيزة ، فهنأته بهذا العفو السامي ، وأظهر لها سروره بفوزه على أضداده ، وحادثها كثيرًا في شأنها، وطمأنها بأنه لا يألو جهدًا في تخليصها من فيكتور، ثم قال:

– لو استطعت تغيير وجه البسيطة لإنقاذك لفعلت بلا تردد، ولو انتقل فؤادي من الشمال إلى اليمين أو تحولت الأهرام عن مكانها المكين ما تغير لي مبدأ ، ولا تبدل لي اعتقاد، فأنا أنا على مبدئي واعتقادي بنجاحك ، خصوصًا وقد صار لي أنصار وأشياع ، وقد اتفقت مع صديق فريد بك، وحسيب بك، وغيرهما على

مؤازرتي، إنني كلما فكرت قليلًا في ذهول أهلك الجبناء الذين رضوا بفيكتور، ونسوا أجنبيته، وشرعوا بقبوله شرعًا فاسدًا، ازداد ثقة بإمكان خلاصك لاستحالة جواز هذه الخطوبة، وأنا على تمام الثقة من مساعدة أنصاري، فإنهم يحبونني كثيرًا، ولا يضنون عليّ بأرواحهم، إنهم يا عزيزة ملائكة إخلاص وأمانة، ولقد تغيرّ الوقت، وانقلب الحال، فصار إنقاذك من السهل عليَّ الآن بعد رجوع بعض أهلك إلى صوابهم وانتباههم إلى عقولهم، فقد صافاني يوسف وآخاني صالح، وصالحني إبراهيم وغيرهم، فلو ساعد صادق وغالب فيكتور قاومهما أولئك.

❖❖❖

ولما عظمت مكانة مصطفى، وظهرت فوائد جهاده وثمرات نضاله، ارتاح لها جلالة سلطاننا الأعظم، فكافأه في ٧ أغسطس سنة ١٨٩٩، وهو تذكار يوم إتمام جلالته عليه بالعلبة الذهبية في سنة ١٨٩٦ بأن أنعم عليه ثانيًا بالنيشان المجيدي الثاني، ثم بعد ثمانية عشر يومًا فقط أنعم عليه أيضًا بالرتبة الأولى من الصنف الثاني، فصار مصطفى كامل باشا بعد أن كان قبل ٢٦ يومًا مصطفى كامل أفندي وهو لم يتجاوز خمسة وعشرين ربيعًا.

ولا تسل عن سرور عزيزة وأهلها المحبين لحبيبها ومصطفى باشا وأهله ومحمد بك فريد ومحمود حسيب بك وباقي إخوانه وخلانه، ولا حاجة لبيان كمد فيكتور ووكيله وشيعته الخبيثة، فقد كان كمدهم أعظم من أن يكون فوقه كمدًا.

قدر مصطفى كامل فائدة العلم قدرها بما رآه في عزيزة بعد أن علَّمها، فرأى أن ينفع أبناء وطنه بالعلم ليكون له منهم أنصار وأعوان يساعدونه على ما وقف نفسه وحياته عليه من تحرير البلاد واستقلالها، فأنشأ مدرسته المعروفة باسمه بسراي السلحدار بشارع مرجوش في ١٧ مارس ١٨٩٩، وجعل التعليم فيها على بر بروجرام عصري جميل مع درس المبادئ الإسلامية والأخلاق العربية والعادات الوطنية وحب البلاد والتعلق بالأمير والتفاني في خدمة عرشه المحروس.

وانتخب للمدرسة ناظرًا وضابطًا ومعلمين من أفضل الأساتذة وأعظمهم، وجعلها تحت إدارة شقيقه الفاضل علي أفندي فهمي كامل الذي كان قد ترك الخدمة في ١٧ يناير ١٨٩٩، فتقدمت المدرسة على يديه تقدمًا باهرا، وغصت بالتلاميذ حتى بلغ عددهم فوق ٢٠٠ تلميذ، يتعلم أكثر من ثلثهم بغير أجر ولا يكلفون شيئًا.

ووضع علي أفندي فهمي للمدرسة قواعد وقوانين محكمة أفادت المدرسة كثيرًا، ورضي عنها أخوه مصطفى باشا.

وعلم مولانا الخليفة الأعظم بإخلاص علي أفندي وشهامته، فأنعم عليه بالرتبة الثانية في ٧ أغسطس من نفس الليلة.

❖❖❖

في مسار اليوم الثاني من شهر ديسمبر ١٨٩٩ كان الواقف في صحراء الأهرام يرى خمسة رجال وفتاة هيفاء خفيفة الحركة معتدلة القوام يسيرون الهوينى على رمال تلك الصحراء الجميلة.

وكان الهواء عليلًا كقطع الماس المنثورة تحت أشعة الشمس ، وابتدأ القمر يشق جلبابه، ويرفع نقابه، فكان منظرًا من أبهج ما رأت الأبصار.

وانتهى السير بالجماعة أمام مربض أبي الهول العظيم ، فوقفوا بين يديه إجلالًا وإعظامًا، وطافوا حوله يرمقونه هيبة ووقارًا ، ثم تقدم رجل منهم وقال:

– يا أبا الهول العظيم ، يا حارس صحراء الأهرام ، وآثار الفراعنة الفخام ، وقبور قدمائنا العظام ، اصغ إليَّ: نحن من أبناء هذا البلد الأمين ، ومن أولاد هذا الوطن القديم ، نتعهد أمامك، ونشهد الله تعالى على أن نكون يدًا واحدة في سبيل سعادتك ، وتطهير مربضك بإنقاذ مصر وإسعادها ، وتخليص نيلها ، وصرنا نقدم رؤوسنا قبل أن نخون عهودنا ، والله على ما نقول رقيب عتيد ، وهو يجزي الصادقين ، وينتقم من الخائنين، فاللهم اشدد أزرنا ، وثبت أقدامنا، وأمددنا بروح من عندك يا رب العالمين، واجز أجر المجاهدين، فقال الجماعة: آمين آمين.

ثم استأنفوا السير وولوا ظهورهم الآثار، واتجهوا نحو الطريق فمروا بفندق ميناهاوس، فقال المتكلم الأول :

– يتهمنا الأعداء والأجانب بالجهل والتوحش، أفلا ينظرون إلى هذه الدور كيف بنيت، وإلى جميع النزلاء على اختلاف الطبقات بيننا كيف رزقت ، فلو كنا كما يقولون لقاومناهم ، وعرفنا طريقهم وناضلناهم، أفيكون سكوتنا جهلًا لم لا يعرفونه لنا كرمًا وفضلًا، ووصلوا إلى حيث موقف عرباتهم، فركب كل اثنين عربة منها ، وكانت الفتاة مع المتكلم.

وإذ سارت الخيل تنهب الأرض ، وطال الطريق التفت إلى الفتاة فإذا هي محدّقة به فمدّ يده إلى يدها، فأخذها بين كفيه ووسم عليها قبلةً حارة ، وقال يخاطبها:

– ما أعذب هذا الحب ، إن أرواح أجدادنا وأسلافنا شهدت الليلة على هذا العزم وسجلته علينا في أوراق البردي ، فأصبح مقدسًا لا تحله قوة مهما عظمت ، ولا قدرة مهما كبرت، وشهد هذا البدر المنير أنه لا يخرج هذا الحب من قلبي أبدًا، وسيكون رفيقي في الحياة وسراجي في القبر عند الممات.

الفتاة : يؤلمني جدًا إكثارك من ذكر موتك يا سعادة الباشا.

الباشا: لا تقولي يا عزيزة «سعادة الباشا» ، فإن قولك هذا يؤلمني أيضًا إذ لست أنا إلا خادمك الأمين ، قولي: يا مصطفى فقط ، فوالله إنها منك أشرف الألقاب ، أما موتي فكل حي يموت، وأنا شاعر بأن حياتي قصيرة الأمد، أنتِ تريدين أن أبقى والله يريد أن أموت ولا راد لإرادة الله

عزيزة : أسأله تعالى أن يخلف هذا الظن إنه سميع مجيب، هل تمت يا مصطفى معدات الجريدة.

مصطفى : انتهى كل شيء ، وستظهر في أول يناير إن شاء الله تحت اسم «اللواء» ، وذلك لما كشفته الأيام عن عدم موافقة آراء الشيخ لآرائنا ، وخروجه عن قصدنا ، إننا كما تعلمين خدمناه كثيرًا وإني أعرف أخي فريد بك مذ كنت أصدر مجلتي (المدرسة) ، وعاشرته كثيرًا ، ووقفت على أعماله ، وما يبذله في سبيل الوطن بخدمة هذا الشيخ ، ثم هو الآن لا يعرف لنا هذا الجميل، ونسي كل خدمتنا ، ورفض ما طالبناه منه ، ويعلم الله أننا لم نطلبه إلا في صالح البلاد وفائدة الوطن، ولكنه أعلمنا برفضه أنه لا يهمه إلا فائدته الشخصية ، ولا يريد غير منفعته الذاتية، والذي أساءنا كثيرًا تردده أخيرًا على وكيل فيكتور وائتماره بأمره.

كان الخمسة رجال الذين أشرنا إليهم : مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك ، وعلي فهمي كامل بك ، ويوسف أفندي ، وعظيم من أصدقائهم والفتاة عزيزة.

فلما انتهى بهم السير إلى ميدان الزهور بجهة باب اللوق ، ووقفت المركبات ، وجاء الجماعة نحو عزيزة فحيوها بكل وقار ، وانحنوا أمامها باحترام ، ثم رجعوا إلى عرباتهم مع مصطفى باشا ، ورافق يوسف عزيزة ، وقصد كل منزله.

وفي ٢ يناير سنة ١٩٠٠ غرة رمضان المعظم سنة ١٣١٧ هجرية صدر أول عدد من جريدة اللواء ، فكان لظهوره تأثير جميل على الرأي العام الوطني ، ووقع سيئ جدًا على قلوب الاحتلاليين والأضداد والحساد ، واهتزت له مقاعد السواس خوفًا ، وارتجف قلوب رجال بريطانيا هلعًا ، وقام له وكيل فيكتور ، وقعد، وكان أشد خصوم الباشا عداوة.

***

تحسنت حال عزيزة كثيرًا ، وارتقت معيشتها عن ذي قبل، فصار لها خادم وخادمة وكثير من الأدوات الكمالية في المعيشة، وكان خادمها يتردد كثيرًا على إدارة جريدة اللواء حاملًا رسائلها إلى حبيبها الباشا، فيدخل عليه من غير إذن كما أمر سعادته.

فبينما هو ذات يوم أمام مكتبته إذ دخل عليه الخادم ، وناوله رسالة، فتناولها بلهفة العاشق المتيم ، وفضها بأنامل الفرح والسرور، وقرأ فيها ما يأتي.

القاهرة في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٤

سعادة أفندم الشريف النبيل مصطفى كامل باشا

بعد السلام على سعادتكم والاحترام الواجب لمقامكم أنهى لسعادتكم رغبتي في مقابلتكم لحاجة تتعلق بشخصي بل بقلبي معك، فتكرموا بذلك ولسعادتكم الشكر.

عزيزة

قرأ الباشا الكتاب ثم طواه متمهلًا، وظهر عليه التفكير، وتقطب ما بين حاجبيه ثم دسه في غلافه، ووضعهُ في درج في المكتبة أمامه، وتناول القلم وكتب الرد.

القاهرة في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٤

حياتي

تحية وسلام وشوق وهيام وإجلال واحترام لطلعتك البهية وذاتك القمرية.

وبعد، فلهجة كتابك اشتغلت بالي، وهيجت بلبالي، وسأحضر حالًا واقبلي فائق التحية من خادمك وقتيل حبك

مصطفى كامل

ثم طواه، وغفله، وناوله إلى الخادم فأخذه وانصرف إلى مولاته، لم يألف مصطفى من صغره إلى اليوم من عزيزة، ولا هي عودته النفور، وكان حبهما لبعضهما يفوق كل حب وغرامهما يزيد عن كل غرام، وكانت كتبها له تسيل رقة ولينًا، فلم يصله منها مثل هذا الكتاب في حياته، فلا ابن الملوح المجنون في حب ليلي ولا جميل في بثينة ولا عنترة في عبلة ولا كثير عزة بأصدق من مصطفى في حب عزيزة، ولا تفاني أحدهم في عشق عشيقته، كما تفانى هو في عشق عزيزته، ولقد شهد له العاذل والحسود والعدو والصديق بإخلاصه في غرامه وصدقه في هيامه ولا جرم، فقد كان حبه فطريًا عظيمًا، وأصيلًا شريفًا، فليحكم الآن كل عاشق،

ويتدبر كل لبيب كيف كان حال مصطفى بعد أن رأى جفاء هذا الكتاب وقسوة لهجته ؟ منعها مرارًا أن تناديه «بالباشا» أو تلقبه «بسعادة» ، وكانت كتبها على ما يشتهي تمامًا وكلها مفعمة بالمحبة وعبارات الهيام، ولم يصله منها مثل هذا الكتاب في لهجته واختصاره وجفاء معناه، فبماذا يعبر عنهُ ؟ وماذا يفهمه عنه؟ كان معها في الصباح كعادته ، فهل طرأ طارئ ؟ وما عساه أن يكون؟

❖❖❖

يعلم كل مصري ويعرف كل شرقي ولا يجهل أغلب الغربيين ما ناله «اللواء» منذ ظهوره من الفوز والنجاح ، وكيف خدم بصدق وجاهد بإخلاص ؟ وكم ضرب على دفّ الوطنية أدوارًا حماسية جميلة أصغى لها الجميع ، وتهافتوا على سماعها.

وجعل مصطفى باشا «اللواء» تحت إدارة شقيقه على بك فهمي كامل ليتفرغ هو للتحرير والسياسة والخطابة، فأدار شؤونه بهمة عالية ، وحذق عجيب، وخدمة بصدق وإخلاص يشابهان صدق الباشا وإخلاصه.

وعرف جلالة مولانا السلطان الأعظم ذلك عنه أيضًا فأعجبته شهامته، فكافأه شأنه دائمًا مع المخلصين بأن أنعم عليه في ١٥ يوليو سنة ١٩٠١ بالنيشان المجيدي الثالث وبرتبة المتياز الرفيعة في ١٢ يونيو سنة ١٩٠٣، فكانت هذه الإنعامات موارد سرور وشجاعة للباشا وأخيه وأنصارهما ، ومصادرهم ، ونكد وفشل لفيكتور ووكيله ونمروذ وأشياعهم، وطالما سعى هذا الوكيل سعيًا متواصلًا، وأجهد نفسه جهدًا عظيمًا ، وحاول كثيرًا أن يثبط مساعي مصطفى باشا وأنصاره فلم يفلح ولا فاز بأمله ، وكان فيكتور يحرضهُ ، ويستفزه فيجمع أشياعه ويتكالبون وينفثون سموم فتنتهم هنا وهناك، وينشرون بذور مكائدهم الخبيثة في كل مكان،

ولكنها لا تنمو ولا تورق ولا تثمر ، فكانت الخيبة تكاد تقتلهم ، والفشل يكاد يقطع قلوبهم، وهم يكظمون الغيظ.

❖❖❖

لم يكاشف مصطفى باشا أحدًا بأكداره من كتاب حبيبته ، بل قام من فوره إليها، وصعد إلى غرفتها ، فوجدها حزينة كئيبة ، والهم ظاهر على وجهها ، ولم تقابله على رأس السلم باسمة كعادتها ، فهاله الأمر ، وأفزعهُ الحال ، فتقدم إليها وحياها ، فلم تكترث كثيرًا ، فزاد هلعه ، وصرخ قائلًا:

- يكاد قلبي ينفطر.

قالت : هوّن عليك ، فإنه لا ينفطر لأجلي ، وغصت بريقها، وسكتت، فصرخ مصطفى ثانيًا.

- لست أفهم شيئًا.

قالت : اقرأ ، وناولته خطابًا ، فقرأ:

- القاهرة في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٤

أيتها الملاك الطاهر السيدة عزيزة

سلام واحترام وبعد، أرجوك أن تسألي حبيبك الباشا عن عشيقته المقيمة بشارع عابدين، واحذري أن يغرر بك.

(الامضا مخلص)

يا لها من دناءة ، صرخ الباشا ، وضرب بكفه الكتاب، هل تصدقين يا عزيزة؟ هل يؤثر عليك محالهم؟ ألم أحذرك من مكائدهم؟ ألم أقل لك : «تدبري كل ما

يقال، واحرصي أن يؤثروا عليك ، وكان جوابك» : حاشا لله أن يؤثر عليَّ قول أو يصادف كلامهم مني إذنًا سامعة، فلماذا أثر الآن وصادف سمعك؟ إنهم أبالسة عرفوا كيف يؤثرون عليك لعلمهم أنه لا يهيج عواطف الفتاة إلا علمها بخيانة حبيبها ، فعمدوا إلى لصق تهمة الخيانة الشنعاء بي ، وللأسف صدق فألهم معك أيضًا قبحهم الله، أقسم لك يا عزيزة بشرفي وبكل عزيز لديَّ أنني لا أزال على عهدي معك ، وأنني لن أحيد عن حبي، ولن أرجع عن غرامي، ولن يوقفني في طريق خدمتك إلا الموت.

وإنني يا عزيزة أضرع إليك ، وأجثو لديك لا تشمتي الأعداء، إنني أعلم أن ابن فيكتور هو الذي أرسل هذا الكتاب ، فحبيبي يا حبيبتي أمله.

فقالت عزيزة من فورها : لقد خاب أمله ، وارتد عليه كيده، وابتسمت ابتسامة الارتياح والسرور، وقامت إلى حبيبها ، فقبلت جبينه الملتهب غيظًا ، وعانقه ، فانطفأ لهيب غيظه، ثم عاتبها بلطف ، وأكد لها أنه سيطلعها على قصدهم السيئ من إرسال هذا الكتاب.

❖❖❖

صار حب مصطفى لعزيزة أشهر من نار على علم ، سارت بأخباره الركبان ، وتحدث به الخاص والعام ، وكان يباهي به في مجالسه الخصوصية، ويفتخر به على إخوانه المقربين، وكان أهله وأنصاره يحبونها لما أوجده في قلوبهم من الميل إليها ، ولما وصفها به أمامهم، ورأوه منها بأعينهم، كان سلاحه في الدفاع عنها أن الشرائع لا تجيزها لفيكتور، وظل كذلك يدافع ويناضل حتى أعلن أهلها أنهم سلموا بها لفيكتور على سبيل تربيتها فقط ، لما كانوا عليه من الفقر وليس على سبيل الزواج، وفيكتور نفسه لا ينكر أنه لا تجيزها له شريعة ولا قانون ، ولكنه لا يريد أن يتركها

لأنه خصَّ بالوصاية عليها بإرادة أهلها ورغبتهم، وخوفًا من انتصار مصطفى عليه، ولكن مصطفى أعلن أنه لا يريد زواجها لأنها أعزّ لديه من زوجة وأقدس في فؤاده من قرينة ، وأن حبه لها أجل من حب الأزواج، وأن غاية جهاده أن تكون خالصة ممن تكرهه، ويقوم هو على خدمتها إلى الممات.

وتحققت عزيزة الفوائد العظيمة التي عادت على حبيبها وعليها بواسطة أسفاره في كل عام إلى أوروبا ، فكانت تشجعه على السفر ، ولا تحزن في فراقه حزنها في سابق الأعوام، ولا ينكر وطني ولا أجنبي ما أفاده جهاد مصطفى باشا لمصر ، وما أنتجه سفره لها من النتائج الحسان بإلقائه أنظار أوروبا إليها ، ونظرها لها بعين الاحترام والوقار ، وإغماضها عنها عين التجهيل والتحقير السابقة.

ومن جليل خدماته ما رفعه إلى رئيس الوزارة الإنكليزية السير هنري كمبل بانرمان بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧ لمناسبة تذكار هذا اليوم المشؤوم الذي دخل فيه الجيش البريطاني مدينة القاهرة سنة ١٨٨٢ يذكره «بالأقسام التي فاهت بها الملكة فيكتوريا ، والخطب التي فاهت بها وزراؤها ، وأكدوا فيها أن الاحتلال الإنكليزي في مصر يكون عارًا على التاج والشرف البريطانيين».

❖❖❖

لا ينكر أحد أن مصطفى باشا كان نابعة الشرق كله ، فكان يبذل جهده في إصلاح أحوال جميع الممالك الشرقية ، وكان يكاتب مولاي عبد العزيز يحذره وابن الرشيد ينصحه.

ولما كانت حرب اليابان وضع كتاب الشمس المشرقة موعظة وتذكرة، وكان عازمًا على السفر إلى بلاد الميكادو لنقل مدينتهم إلينا ، ولما وقعت حادثة دنشواي الفظيعة كان اللواء أول صارخ على فظاعتها ، ولا يجهل واحد في العالم جهاد

صاحبه ونضاله وأسفاره إلى باريس ولو ندرة وخطبته هناك على جمع من رجال البرلمان البريطاني، ونفيه التعصب الذي رُميت به الأمة المصرية من أعدائها، وكانت حججهُ باهرة، وأدلته ساطعة حتى اقشعرت أبدان الإنكليز الأحرار من ذكره تفاصيل تعذيب الدنشوانيين بظلم وقسوة، فانتصروا له، وناضلوا معه حتى أجبروا السير غراي على سحب كلمة التعصب التي تفوه بها عن المصريين، وقد فعل، وما اتهمونا بالتعصب إلّا لما أظهرناه من عواطف الوطنية يوم طلبه، وما أبداه مصطفى باشا من الدفاع عن الدولة والملة.

حادثة دنشواي

ورأى بعد عودته من لندن أن يصدر جريدتين إحداهما فرنساوية والأخرى إنكليزية لتعبرا بلسانين أجنبيين عن رغائب المصريين، وتفضح أعمال الأعداء بلغة يفهمها الأوروبي الذين يخفون حسناتنا عنه، ويعرضون عليه سيئاتنا عمدًا ليبعدوا عن قلبه الشفقة بنا، وليبرروا أمامه اضطهادهم لنا، فألف شركة مساهمة، وجمع ٢٠ ألف جنيه في ثلاثة أيام اكتتب بها الوطنيون عن طيب خاطر لما يعهدوه فيه من الكفاءة التامة والصدق والإخلاص، ثم رجع ثانيًا إلى باريس ولندن مع صديقه الأعظم محمد بك فريد لانتقاء المحررين للجريدتين من الفرنساويين والإنكليز، وتعيين المكاتبين لهما في الجهتين، ثم عادا، وظهرت بعد ذلك ليتندار أجيبسيان (الفرنساوية) وذي إجيبسيان إستندارد (الإنكليزية) في ٢ مارس سنة ١٩٠٧، وجعل الاشتراك فيهما مجانًا للمصريين مدة ١٦ يومًا، ولرجال مجلسي النواب الفرنساوي والإنكليزي وعظماء الأمتين مدة سنة كاملة، حكمة بالغة.

ولما كان في هذه الرحلة الأخيرة بأوروبا دب المرض إلى جسمه وألزمه الفراش عدة أيام هناك، فأحضر له صديقه فريد بك الدكتور الأشهر روبان، فتبين له أن انحراف صحته مسبب عن كثرة العمل وشدة إجهاده لنفسه، وتحميلها فوق الطاقة، فنصح له بترك العمل قليلًا واستبداله بالرياضة بضعة أيام، وأن يراقب الله في أمته فلا يحرمها من وجوده حتى يتم مهمته التي وقف حياته عليها، فتذكر حينئذ عزيزة وتنهد.

ولكن أتت نصيحة الطبيب بعكسها، فإنه لما أحس بالضعف واستعداده للأمراض الفاتكة أسرع في العمل، وضاعف المجهود حتى أظهر الجريدتين في الميعاد البادي الذكر، وأخذ ينظم الحزب الوطني، ويضع مواد قانونه على قواعد ثابتة حتى إذا سكن الجنة لا يخشى عليه السقوط لا قدر الله.

وألقى خطبته الشهيرة بتياترو زيزينيا بالإسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧، وأعلن فيها مبادئ الحزب العشرة، فدوى صداها في العالم، وخفقت لها أفئدة الوطنيين، وأظهرت الأمة ميلها للانضمام إليه، فلم يأت موعد انعقاد الجمعية العمومية للحزب إلا ولديه طلبات للعضوية تحصى بالألوف، وانعقدت الجمعية

العمومية في يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، فحضرها جمع غفير من مختلف الطبقات والمقامات من الأعضاء ، فخطب فيهم الباشا خطبة مؤثرة للغاية، وانتخبوه رئيسًا ، وكان مريضًا ، فرجع بعد الخطابة إلى فراش مرضه ثانية.

ولم يعقه المرض الشديد عن القيام بخدمته ، ولم يمنعه وجوده في فراش ألمِهِ عن جهاده، فرفع من قلمه في ١٩ يناير سنة ١٩٠٨ إلى رئيس الوزارة الإنكليزية احتجاجًا على عقد الشركة السودانية المصرية الإنكليزية الباطل بمقتضى الفرمانات الشاهانية والمعاهدات الدولية، ورفع إلى الصدارة العظمى ورئاسة الوزارة المصرية بلاغين بذلك.

❖❖❖

يغنيني ذكاء القارئ وفهمهُ عن أن أتكبد وصف حالة عزيزة السيئة الحظ وجزعها الشديد على مرض حبيبها وما كانت تشعر به من الهم والغم والكدر، فلم يكن جزع أشقائه وأنصاره وأشياعه ومحبيه بأكبر من جزعها ، فما كانت التعسة تهنأ بعيش ولا رقاد، بل كان السهر أليفها والبكاء أنيسها والضجر جليسها، وكانت تلازم سريره ، فيتمتع بقربها، ويذهب ألمه مادامت بجانبه، وإذا غابت عنه تمثل شخصها أمامهُ ، وأخذ يكلم الخيل وينادي حتى يغيب عن صوابه في بيداء الغرام ويعلو صوته حتى يسمعهُ أقاربه فينبهونه خوفًا عليه، ولما تكرر حصول ذلك منهُ قالوا: إن مرضهُ من العشق وسقمهُ من الغرام.

وفي أوائل فبراير سنة ١٩٠٨ رفع إلى السير إدوارد غراي وزير خارجية إنكلترا تلغرافًا بإمضائه احتجّ فيه عليهِ لتهمتهِ للمصريين بالجهل وعدم استحقاقهم للمجلس النيابي، وقال له: إن المصريين أقدر على حكم أنفسهم من كثير من الأمم الأوروبية.

فهدأ بال عزيزة وأخوته عليه ، وحسبوا أنهُ تقدم إلى الشفاء.

وفي العاشر من فبراير دخلت عزيزة على حبيبها تبتسم وفي يدها كتاب، فحيتهُ بانعطاف وسألتهُ عن صحتهِ ، ثم دفعت إليه الكتاب وهي تضحك، فتناوله من يدها وقرأ:

القاهرة في ٩ فبراير سنة ١٩٠٨

أيتها السيدة العظيمة:

تحية واحترام، وبعد فقد استفزتني الشفقة بك أن أمحض لك النصح، فاعلمي أن الذي يدّعي عشقك عاشق لغيرك، فاسأليه عن عشيقتيه في القسطنطينية وباريس وكذلك غرورًا به.

شيخ من أهلك

ولم يتم قراءته حتى قالت له عزيزة:

– «أقسم لك أنني لا أصدق فيك وشاية ولا تؤثر عندي الأكاذيب، وحاشاي أن أعيرها أذنًا سامعة، فكن براحة بال.

فسكت الباشا وسرّ نوعًا بما قالته عزيزة، وبعد انصرافها أحسّ بتشنج في قلبه، وتأكد دون أجله، فدعا أخاه علي بك فهمي كامل، وصديقه فريد بك وبعض أعضاء حزبه، وقال لهم:

– دنت الساعة الهائلة، وقرب الرحيل، وأنا لا أشك في إخلاصكم وقدرتكم على السير في طريقي، واقتفاء أثري، ولكنني أؤيدكم نصيحة، ليكن كل منكم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، لا تتفرقوا، ولا تجعلوا للشياطين إلى قلوبكم سبيلًا، وابذلوا أرواحكم فداء الوطن وحياتكم في سبيل إعلاء شأنه، فلا حياة إلا به»، وأنت يا أخي: «كن شهمًا شجاعًا اقتفِ أثري واعمل عملي، وأعتقد أن أخاك لم يمت، فالأمة كلها عونك ونصيرك، إننا يا أخي على الحق فلا نضام أبدًا، إنهم سيشمتون في موتي، ولكنهم سيموتون، الحمد لله فقد أسست الحزب، وتركت رجالًا يبنون فوق ما أسست فيشيدون ما نرجو لبلادنا من عزّ وسؤدد».

ثم أخذ القلم وكتب:

القاهرة في يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨

عزيزتي:

أودعك الوداع الأخير، وأنظر إليك النظرة الأخيرة،

وبعد

فقد أوصيت بك أخي وصديقي وإخواني خيرًا.

والآن في الساعة النهائية أطلعك على عشيقاتي اللاتي كتب لك عنهنَّ الخائنون للتشويش على أفكارك.

لا أنكر أن لي قلبًا خفاقًا ككل إنسان، وجنانًا يهتزّ كأي جنان، ولكن وحرمة ساعة الاحتضار لم يشغل القلب عشق الفتيات، ولا استهوت هذا الجنان دواعي الملذات، وإلا لكان الأعداء يدسونه عليَّ في مفترياتهم، ويتسلحون به ضدي في تشهيراتهم، ولكنهم لطهارتي لا يجسرون.

فأما شارع عابدين، فأعشق به الأريكة الخديوية الكريمة، والقسطنطينية، فأعشق فيها الخلافة الإسلامية العظيمة، وكنت أعشق في باريس الحرية الغالية الثمينة، ومع ذلك فعشقي لك هو الأول والآخر، والذي عشت به، وأموت الآن عليه «يا عزيزتي» مصر.

الشهيد

مصطفى كامل

ثم أسلم روحه الطاهرة إلى ربه داعيًا لمصر «عزيزته» أن تبلغ ما كان يسعى فيه لأجلها، بهمة سعادة شقيقهِ وحزبهِ وأنصاره، وفي مقدمتهم سعادة الوطني الغيور صديقهِ الأعظم محمد فريد بك.

وكانت تلك آخر كلماته وهذه آخر كتابته

تمت

مات صاحب اللواء فليحيى اللواء

مات الرئيس فليحيى الرئيس